باب البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال بعض جهابذة الالفاظ ونقاد المعاني : المعانى القائمة فى صدور العباد المتصورة فى أذهانهم، والمتخلجة فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم مستورة خفية ، و بعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة، وموجودة فى معنى معدومة، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه. ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه الا بغيره * وانما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها ، واخبارهم عنها ، واستعمالهم اياها * وهذه الخصال هي التى تقربها من الفهم وتجلبها للعقل ، وتجعل الخفى، منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريبا . وهى التى تخلص (١) الملتبس، وتحل المنعقد . وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقا ، والمجهول معروفا ، والوحشي مألوفا ، والغفل موسوما ، والموسوم معلوما ، وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الاشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل ، يكون اظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الاشارة ابين وانور ، كان انفع وانجع . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه يدعو اليه ويحث عليه . و بذلك نطق القرآن . و بذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت وأصناف الاعجام

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضى السامع الى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان . ومن أى جنس كان ذلك الدليل ، لان مدار الامر والغاية التى اليها يجرى القائل والسامع انما هو الفهم والافهام ، فباى شيء بلغت الافهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع

ثم اعلم حفظك الله ان حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعانى مبسوطة الى غير غاية، وممتدة الى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة

(١) كانت فى الاصل «تلخص» ولا معنى للتلخيص هنا وانما هى تخلص كما اثبتناها

وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لاتنقص ولا تزيد ، أولها : اللفظ ، ثم الاشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال ، وتسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الاصناف،ولا تقصر عن تلك الدلالات

ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها ، وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ، ثم عن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها واقدارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها فى السار والضار ، وعما يكون منها لغواً بهرجا وساقطاً مطّرحاً

قال أبو عثمان : وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير

وقالوا : البيان بصر، والعى عمى ، كما أن العلم بصر، والجهل عمى. والبيان من نتاج العلم، والعى من نتاج الجهل . وقال سَهْلُ بنُ هَرُون : العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم . وقال صاحب المنطق : حد الانسان : الحى الناطق المبين . وقالوا: حياة المروءة الصدق ، وحياة الروح العفاف ، وحياة الحلم العلم ،وحياة العلم البيان . وقال يونس بن حبيب : ليس لعى مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولوحك بيافوخه عنان السماء . وقالوا : شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنه قطعة من علمه ، واختياره قطعة من عقله . وقال ابن التوام : الروح عماد البدن ، والعلم عماد الروح ، والبيان عماد العلم

قد قلنا فى الدلالة باللفظ ، فأما الاشارة : فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب ، اذا تباعد الشخصان ، وبالثوب وبالسيف . وقد يتهدد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاجراً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً

والاشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هى له، ونعم الترجمان هى عنه ،وما اكثر ماتنوب عن اللفظ وما تغنى عن الخط ؟

وبعد،فهل تعدو الاشارة أن تكون ذات صورة معروفة ، وحلية موصوفة ، على اختلاف فى طبقاتها ودلالتها ؟ وفى الاشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة فى أمور يسرها الناس من بعض ، ويخفونها من الجليس وغير الجليس . ولولا الاشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ، ولجهلوا هذا الباب البتة . ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل فى باب صناعة الكلام لفسرتها لكم . وقد قال الشاعر فى دلالات الاشارة :

أشارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خيفَةَ أهْلِها إشارَةَ مَذعُورٍ ولم تَتَكَلَّمِ
فأيْقنتُ أنَّ الطرفَ قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحَبيبِ المُتَيَّمِ

وقال الآخر :

وللقلب على القلْـ ـبِ دَليلٌ حينَ يلقاهُ
وفي الناسِ مِن النَّا سِ مَقاييسٌ وأشْباهُ
وفي العَينِ غِنًى للمر ءِ أنْ تنطِقَ أفواهُ

وقال الآخر :

ومَعْشَرٍ صيدٍ ذَوِي تَجِلَّهْ ترَى عليهم للنَّدَى أدِلَّهْ

وقال الآخر :

ترَى عينُها عيني فتعرِفُ وجْهَها وتعرِفُ عيني ما بهِ الوحْيُ يَرْجِعُ

وقال الآخر :

وعينِ الفتى تُبْدِي الذي في ضَميرِهِ وتَعْرِفُ بالنَّجْوَى الحديثَ المُغَمَّسَا

وقال الاخر :

ألعينُ تُبدِي الذي في نفسِ صاحبها من المحبةِ أو بغضٍ إذا كانَا
والعينُ تنطقُ والأفواهُ صامِتَةٌ حتى ترى من ضميرِ القلبِ تِبْيَانَا

هذا ، ومبلغ الاشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضا باب، تتقدم فيه الاشارة الصوت . والصوت هو آلة اللفظ ، وهو الجوهر الذى يقوم به التقطيع ، و به يوجد التأليف . ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاما موزوناً ولا منثوراً الا بظهور الصوت . ولا تكون الحروف كلاما الا بالتقطيع والتأليف . وحسنُ الاشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذى يكون مع الاشارة من الدل والشكل والتَّفَتُّل والتثنى واستدعاء الشهوة ، وغير ذلك من الامور

قد قلنا فى الدلالة بالاشارة ، فاما الخط فمما ذكر الله تبارك وتعالى فى كتابه من فضيلة الخط والانعام بمنافع الكتاب قوله لنبيه ﷺ « إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » وأقسم به فى كتابه المنزل على نبيه المرسل ﷺ حيث قال « نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » ولذلك قالوا : القلم أحد اللسانين . كما قالوا : قلة العيال أحد اليسارين . وقالوا : القلم أبقى أثراً ، واللسان أكثر هذراً . وقال عبدالرحمن بن كيسان : استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام . وقالوا : اللسان مقصور على القريب الحاضر ، والقلم مطلق في الشاهد والغائب ، وهو للغابر الكائن ، مثله للقائم الراهن . والكتاب يقرأ بكل مكان ، ويدرس فى كل زمان ، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه الى غيره

وأما القول فى العقد ، وهو الحساب ، دون اللفظ والخط ، فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل « فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » وقال جل وتقدس « الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » وقال تبارك وتعالى « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ » وقال تبارك وتعالى « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة ، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب فى الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل ذكره معنى الحساب فى الآخرة

وفى عدم اللفظ وفساد الخط ، والجهل بالعقد ، فساد جل النعم ، وفقدان جمهور المنافع ، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواما ، ومصلحة ونظاماً

وأما النصبة فهى الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشيرة بغير اليد . وذلك ظاهر فى خلق السموات والارض ، وفى كل صامت وناطق ، وجامد ونام ، ومقيم وظاعن ، وزائد وناقص . فالدلالة التى فى الموات الجامد ، كالدلالة التى فى الحيوان الناطق .

فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء معربة من جهة البرهان . ولذلك قال الاول : سل الارض فقل : من انهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وقال بعض الخطباء : أشهد أن السموات والارض آيات دالات ، وشواهد قائمات ، كل يؤدى عنك الحجة ، ويعرب عنك بالربوبية موسومة بآثار قدرتك ، ومعالم تدبيرك التى تجليت بها لخلقك ، فأوصلت الى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر ورجم الظنون ، فهى على اعترافها لك ، وذلها اليك ، شاهدة بانك لا تحيط بك الصفات ، ولا تحدك الاوهام ، وأن حظ المفكر فيك الاعتراف لك . وقال خطيب من الخطباء حين قام على سرير الاسكندر وهو ميت : الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وان كان صامتا ، وأشار اليه وان كان ساكتا

وهذا القول شائع فى جميع اللغات ؛ ومتفق عليه مع افراط الاختلافات

وأنشد أبو الرديني العكلى فى تنسم الذئب للريح واستنشاقه واستراوحه :

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إذا لم يسمعِ ... بِمِثْلِ مِقْراعِ الصَّفَا الموقَّعِ

المقراع : الفأس التى يكسر بها الصخر . والموقع : المحدد ، يقال : وقعت الحديدة اذا حددتها . وقال عنترة بن شداد العبسى ، وجعل نعيب الغراب خبرا للزاجر :

حَرِقُ الجَناحِ كأنَّ لَحْيَ رأسِهِ ... جَلَمَانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ

الحرق : الاسود . شبه لحييه بالجلمين لان الغراب يخبر بالفرقة والغربة ، ويقطع كما يقطع الجلمان . وقال الراعى :

إن السَّماءَ وإن الريحَ شاهدةٌ ... والأرضُ تشهدُ والأيامُ والبلدُ

لقد جزيت بنى بَدرٍ بِبَغْيِهِم ... يومَ الهباءةِ يوماً ما له قَوَدُ

وقال نُصَيْبٌ فى هذا المعنى يمدح سليمان بن عبد الملك :

أقول لرَكب صادِرِين لقيتُهم ... قِفا ذات أوشال ومولاكَ قارِبُ

قِفُوا نَخبِرونا عن سُليمانَ إنَّنى ... لِمعروفه من آل ودَّانَ طالب

فعاجُوا فأثنوا بالذي أنت أهلهُ ... ولو سكتوا أثنَتْ عليك الحقائِب

وهذا كثير جدا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : قيمة كل انسان مايحسن

فلو لم نقف من هـذا الـكتاب الا على هذه الـكلمة لوجدناها كافية شافية ، ومجزية مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الـكفاية ، وغير مقصرة عن الغاية

وأحسن الـكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحـكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله. فاذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال ، مصونا عن التـكلف ، صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الـكريمة . ومتى فصلت الـكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة

وقد قال عامرُ بنُ عبدِ القيس : الـكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان

قال الحسن رضي الله تعالى عنه ـ وسمع متكلما يعظ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ولم يرق عندها ـ ياهـذا إن بقلبك لشرا أو بقلبي . وقال على بن الحسين ابن على رضى الله عنهم . لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة ، وجملة الحال فى صواب التبيين ، لاعربوا عن كل مانخالج فى صدورهم ، ولو وجدوا من برد اليقين مايغنيهم عن المنازعة الى كل حال سوى حالهم ، وعلى أن دَرَكَ ذلك كان يعدمهم فى الايام القليلة العدة ، والفكرة القصيرة المدة ، ولـكنهم من بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالعجب ، ومعدول بالهوى عن باب التثبت ، ومصروف بسوء العادة عن تفضيل التعلم . وقد جمع محمد بن على بن الحسين صلاح شأن الدنيا بحذافيرها فى كلمتين فقال : صلاح شأن جميع التعايش والتعاشر ملء مكيال : ثلثاه فطنة ، وثلثه تغافل فلم يجعل لغير الفطنة نصيبا من الخير ، ولا حظا فى الصلاح . لان الانسان لا يتغافل إلا عن شيء قد فطن له وعرفه

وذكر هذه الثلاثة الاخبار ابرهيم بن داحة ، عن محمد بن عمير . وذكرها صالح بن على الاقمم عن محمد بن عمير ، وهؤلاء جميعا من مشايخ الشيع ، وكان ابن عمير أغلاهم وأخبرنى ابرهيم بن السندى ، عن على بن صالح الحاجب ، عن العباس بن محمد

قال : قيل لعبد الله بن عباس :أنى لك هذا العلم ؟قال : قلب عقول، ولسان سؤول. وقد رووا هذا الكلام عن دَغْفل بن حنظلة (١) العلامة ،وعبد الله أولى به منه. والدليل على ذلك قول الحسن : إن أول من عرف بالبصرة ابن عباس، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة ففسرها حرفا حرفا ، وكان مِثجّا يسيل غربا

المثج : السائل الكثير ، وهو من الثجاج. والغرب ههنا الدوام

أخبرنا هشام بن حسان وغيره قال : قيل للحسن :ياأبا سعيد ، ان قوما زعموا انك تذم ابن عباس ؟ قالوا : فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : إن ابن عباس كان من الاسلام بمكان ، ان ابن عباس كان من العلم بمكان ، وكان والله له لسان سؤول، وقلب عقول ، وكان والله مثجاً يسيل غربا

قالوا : وقال على بن عبد الله بن عباس : من لم يجد مس نقص الجهل فى عقله، وذل المعصية فى قلبه ، ولم يستبن موضع الخلة فى لسانه عند كلال حده عن حد خصمه، فليس ممن يفزع عن ريبة ، ولا يرغب عن حال معجزة ، ولا يكترث لفصل ما بين حجة وشبهة قالوا : وذكر محمد بن على بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال: انى لا كره أن يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله

وهذا كلام شريف نافع، فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه

ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد ، والدنىء الساقط، يعشش فى القلب، ثم يبيض ثم يفرخ ، فاذا ضرب بجرانه ، ومكن لعروقه ، استفحل الفساد وبزل ، وتمكن الجهل وفرخ ، فعندذلك يقوى داؤه، ويمتنع دواؤه . اللفظ الهجين الردىء، والمستكره الغبى أعلق باللسان ، وآلف للسمع ، وأشد التحاما بالقلب ، من اللفظ النبيه الشريف والمعنى الرفيع الكريم . ولو جالست الجهال والنوكى، والسخفاء والحمقى، شهرا فقط لم تنق من أوضار كلامهم، وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا. لان الفساد أسرع الى الناس وأشد التحاما بالطبائع . والانسان بالتعلم والتكلف و بطول الاختلاف

(١) دغفل بن حنظلة السدوسي الشيبانى . كان مضرب المثل فى معرفته أنساب العرب . فكانوا يقولون «انسب من دغفل» ادرك النبى ﷺ ولم يروعنه شيئا، وله مع ابى بكر محاورة فى النسب تزيد عليه فيها . وقد وصف العلم فقال : إن للعلم آفة وإضاعة ، ونكدا واستجاعة ، فآفته النسيان، واضاعته أن تحدث به من ليس بأهله ، ونكده الكذب فيه، واستجاعته أن صاحبه مهموم لا يشبع . قتله الازارقة

الى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء ، يجود لفظه، ويحسن أدبه . وهو لا يحتاج فى الجهل الى اكثر من ترك التعلم ، وفى فساد البيان الى اكثر من ترك التخير

ومما يؤكد قول محمد بن على بن عبد الله بن عباس قول بعض الحكماء حين قيل له : متى يكون الادب شراً من عدمه ؟ قال : اذا كثر الأدب، ونقصت القريحة. وقد قال بعض الاولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه . وهذا كله قريب بعضه من بعض

وذكر المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ عُمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فقال . كان والله أفضل من أن يخدع، وأعقل من أن يخدع . وقال محمد بن على بن عبد الله بن عباس : كفاك من علم الدين أن تعلم مالا يسع جهله ، وكفاك من علم الادب أن تروى الشاهد والمثل . وكان عبد الرحمن بن اسحق القاضي يروى عن جده ابرهيم بن سلمة قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت الامام ابرهيم بن محمد يقول : يكفى من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع

قال أبو عثمان : وأما أنا فأستحسن هذا القول جداً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله. وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى الانبياء عامة

أخبرنى أبو الزبير كاتب محمد بن حسان ، وحدثنى محمد بن أبان ـ ولا أدرى كاتب من كان ـ قالا : قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الاقسام ، واختيار الكلام . وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندى: ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة . وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة . ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الافصاح بها الى الكناية عنها، اذ كان الافصاح أوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالنظر

وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الحرف بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر . ثم قال وزين ذلك كله وبهاؤه ، وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشمائل موزونة ، والالفاظ

معدلة ، واللهجة نقية ، فان جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت ، فقد تم كل التمام ، وكمل كل الكمال

وخالف عليه سهل بن هرون ـ وكان سهل فى نفسه عتيق الوجه ، حسن الاشارة ، بعيداً من الفدامة ، (١) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، و برقة الذهن قبل المخاطبة ، و بدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبل قبل التكشف . فلم يمنعه ذلك أن يقول ماهو الحق عنده ، وان أدخل ذلك على خاله النقص ـ قال سهل بن هرون : لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا بهياً ذا لباس (٢) نبيلا ، وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر قليلا قميئا وباذ الهيئة دميما ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلاهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئه على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ، ولكان الاكثار فى شأنه علةً للاكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقرَ ، ومن بيانه أيئس ، ومن حسده أبعد . فاذا هجموا منه على مالم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ماقدروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لان الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ، وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين ، فان ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم به اكثر ، والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن المقيم ، وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى ، مثل الذى معهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكل ما كان فى ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران فى علمهم ، والاصحاب فى الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون الى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعم نفعاً ، وأكثر فى وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مؤنة ، وأكثر فائدة

ولذلك قدّم بعض الناس الخارجىّ على العريق ، والطارف على التليد ، وكانوا يقولون : اذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً فانك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين ، إما رجلا يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل والاكبار

(١) الفدامة : العى والغباء . (٢) فى نسخة : ولباسا نبيلا ، ولم نرها معنى فابدلناها بما أثبتناه هنا ليستقيم اللفظ ويدنو المعنى من الصواب

والتبجيل على قدر حالها فى نفسه، وموقعهما من قلبه . وإما رجلا تعرض له التهمة لنفسه فيهما والخوف من أن يعطى تعظيمه لها يوهمه من صواب قولها و بلاغة كلامهما ما ليس عندها ، حتى يفرط فى الاشفاق ويُسرف فى التهمة ، فالاول يزيد فى حقه للذى له فى نفسه. والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه ولا شفاقه من أن يكون مخدوعا فى أمره . فاذا كان الحب يعمى عن المساوى ، فالبغض يعمى عن الحقائق والمحاسن . وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ومحصول حدود لطائف الامور الا عالم حكيم، أو معتدل الاخلاط (١) عليم . والاقوى المنة، لوثيق العقدة، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الاعظم والسواد الاكثر

وكان سهل بن هرون شديد الاطناب فى وصف المأمون فى البلاغة والجهارة ، و بالحلاوة والفخامة ، وجودة اللهجة والطلاوة

واذا صرنا الى ذكر ما يحضرنا من تسمية خطباء بنى هاشم، و بلغاء رجال القبائل قلنا فى وصفها على حسب حالها والفرق الذى بينها ، ولا ننا عسى أن نذكر جملة أسماء خطباء الجاهليين والاسلاميين والبدويين والحضريين ، و بعض ما يحضرنا من صفاتهم وأقدارهم ومقاماتهم و بالله التوفيق

ثم رجع بنا القول الى ذكر الاشارة : وروى أبو شمر عن معمر أبى الأشعث خلاف القول الاول فى الاشارة والحركة عند الخطبة ، وعند منازعة الرجال ومناقلة الاكفاء

وكان أبو شمر اذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه انما يخرج من صدع (٢) صخرة ، وكان يقضى على صاحب الاشارة بالافتقار الى ذلك و بالعجز عن بلوغ ارادته ، وكان يقول : ليس من المنطق أن تستعين عليه بغيره ، حتى كلمه ابرهيم بن سَيّار النظّام (٣) عند ايوب بن جعفر

(١) معتدل الاخلاط : معتدل المزاج (٢) الصدع : الشق

(٣) هو أبو اسحق ابرهيم بن سيار النظام، أحد شيوخ المعتزلة، واستاذ الجاحظ في علم الكلام، وفى انتحال الاعتزال. وكان من ائمة البلاغة وأعيان البيان. قرأ كثيراً من كتب الاوائل واستوعب ما تعلق منها بالطبيعيات والآلهيات ، واستنبط منها مسائل مزجها بكلام المعتزلة وتفرد بها عنهم وصار رأسا « لفرقة النظامية » المنسوبة اليه . وكان جيد المنطق ، حاد الذهن ، سريع الخاطر ، غواصا على المعانى ، دقيق الاستنباط، ذكى الفؤاد. وقد أداه ذلك الى ماذهب اليه من الآراء والافكار . ومن

فاضطره بالحجة وبالزيادة فى المسألة حتى حرك يديه ، وحلّ حبوته وحبا اليه حتى أخذ بيديه . ففى ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبى شمر الى قول ابرهيم

وكان الذى غرّ أبا شمر وموّه له هذا الرأى ان أصحابه كانوا يستمعون منه ، ويسلمون له ، ويميلون اليه ، ويقبلون كل ما يورده عليهم ويثبته عندهم ، فلما طال عليه توقيرهم له وترك مجاذبتهم إياه ، وخفت مؤنة الكلام عليه نسى حال منازعة الأكفاء ، ومجاذبة الخصوم . وكان شيخاً وقوراً وزميتاً ركيناً . وكان ذا تصرف فى العلم ، ومذكوراً بالفهم والحلم

قال معمّر أبو الأشعث : قلت لبَهْلَة الهندى ـ أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند مثل « منكة » و « بازيكر » و « قلبرقل » و « سندباذ » وفلان وفلان ـ

قوله : أن الجوهر مؤلف من اعراض اجتمعت . وليس بين قوله هذا وبين قول علماء الطبيعة فى عصرنا من انه لا يوجد جوهر فرد غير قابل للتجزئة ، فرق كبير . وكان من صغره يتوقد ذكاء ، ويتدفق فصاحة ، ويفيض بلاغة ، دفعه أبوه وهو صغير الى الخليل ابن احمد ليعلمه فقال له الخليل يوما ليمتحنه وفى يده قدح زجاج : يا بنى ، صف لى هذه الزجاجة . فقال : أبمدح ام بذم ؟ فقال : بمدح . قال : نعم ، تريك القذى ، وتقيك الأذى ، ولا تسترما ورى . قال : فذمها ، فقال : سريع كسرها ، بطىء جبرها . قال : فصف هذه النخلة ، واوما الى نخلة فى داره ، فقال : أبمدح أم بذم ؟ قال : بمدح . فقال : حلو مجتناها ، باسق منتهاها ، ناضر أعلاها . قال : فذمها . فقال : صعبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، محفوفة بالاذى . فقال الخليل : يا بنى ، نحن الى التعلم منك أحوج . ثم اشتغل على أبى الهذيل العلاف بمذهب الكلام الى أن برع وظهر فى أيام المعتصم وتبعه خلق كثير . وناظر شيخه أبا الهذيل وظهر عليه مراراً . ووصف يوما عبد الوهاب الثقفى فقال : هو أحلى من أمن بعد خوف ، وبرء بعد سقم ، وخصب بعد جدب ، وغنى بعد فقر ، ومن طاعة المحبوب ، وفرج المكروب ، ومن الوصل الدائم ، مع الشباب الناعم . وكان كثير التطير وله فيه أحداث . وله كلام رشيق ، وشعر رقيق . فمن كلامه : العلم شىء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فاذا اعطيته كلك فانت من اعطائه لك البعض على خطر . وقال : مما يدل على لؤم الذهب والفضة صيرورتهما عند اللئام ، فالشىء يصير الى شبهه ، والجنسية علة الضم . وقال : اذا كان فى جيرانك جنازة وليس فى بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة ، فان المصيبة عندك اكثر منها عند القوم وبيتك أولى بالمأتم . ولد بالبصرة سنة ١٨٥ هـ ٨٠١ م وتوفى سنة ٢٢١ هـ ٨٣٥ م

ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فائق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فاذا فيها :

« أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك أن يكون الخطيب رابط الجاش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قواه فضل للتصرف فى كل طبقة . ولا يدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفاً عليما ، ومن قد تعود حذف فضول الكلام واسقاط مشتركات الألفاظ ، قد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى جهة الاستطراف والتظرف »

وقال من علم : حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ، ولا مقصراً ولا مشتركا ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذا كراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مؤنقاً ، ولهول تلك المقامات معاوداً ومدار الامر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم . والحمل عليهم على اقدار منازلهم . وأن تواتيه آلته ، وتتصرف معه أداته ، ويكون فى النهمة ، لنفسه معتدلا ، وفى حسن الظن بها مقتصداً ، فانه ان تجاوز مقدار الحق فى تهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين ، وان تجاوز الحق فى مقدار حسن الظن بها أمنها ، فأودعها تهاون الآمنين : ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل

وقال ابرهيم بن هانئ ـ وكان ماجناً خليعاً ، كثير العبث متمرداً ـ ولولا أن كلامه هذا الذى أراد به الهزل يدخل فى باب الجد لما جعلته صلة الكلام الماضى ، وليس فى الارض لفظ يسقط البتة ولا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن ـ قال ابرهيم بن هانئ : من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت . ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء . ومن تمام آلة المغنى أن يكون فاره البرذون براق الثنايا ، عظيم الكبر ، سيئ الخلق . ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً ، ويكون اسمه أذين ، أو مازيار ، أو ازدانقاذار ، أو ميشا ، أو شلوما ، ويكون أرقط الثياب مختوم العنق . ومن تمام آلة الشعر أن يكون

الشاعر اعرابياً ، ويكون الداعى الى الله صوفيا . ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع عظيم الرأس

ولذلك قال ابن سنان الجديدى لراشد بن سَلَمَةَ الهذَلى : ماأنت بعظيم الرأس ، ولا ثقيل السمع ، فتكون سيداً ، ولا بأرسح فتكون فارسا . وقال شبيب بن شيبة الخطيب لبعض فتيان بنى منقر : والله مامطلت مطل الفرسان،ولا فتقت فتق السادة

قال الشاعر

تُقَلِّبُ رَأْساً لم يكنْ رَأْسَ سيِّدٍ وكفّاً كَكَفِّ الضَّبِّ أوْهِيَ أحْقَرَ

فعاب صغر رأسه وصغر كفه ، كما عاب الشاعر كف عبد الله بن مطيع العدوى حين وجدها غليظة جافية فقال :

دَعَا ابنُ مُطيعٍ للبياعِ فجئتُهُ إلَى بَيْعَةٍ قلبي لها غيرُ آلِفِ

فناولنى خَشْناءَ لَمَّا لمَسْتُها بكفّي ليستْ من أكُفِّ الخَلائِفِ

وهذ باب يقع فى « كتاب الجوارح » مع ذكر البُرص والعنرج والعنسر والأدر والفُلج والحدب والقرع وغير ذلك من علل الجوارح ، وهو وارد عليكم بعد هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

وقال إبرهيم بن هانئ : ومن تمام آلة الشيعى أن يكون وافر الجمة ، صاحب باز بكند . ومن تمام آلة الحارس أن يكون زميتاً قطوباً ، أبيض اللحية ، أقنى أجنى ، وصاحب تكلم بالفارسية

وأخبرنى ابرهيم بن السندى قال : دخل العمانى الراجز على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج فقال : إياك أن تنشدنى الا وعليك عمامة عظيمة الكور ، وخفان دمالقان. قال ابرهيم ، قال أبو نصر : فبكر عليه من الغد وقد تزيا بزى الاعراب فأنشده ثم دنا منه فقبل يده وقال : ياأمير المؤمنين قد والله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت يزيد بن الوليد ، وابرهيم بن الوليد ورأيت وجوههما وقبلت أيديهما وأخذت جوائزهما،وأنشدت السفاح ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المنصور ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المهدى ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت الهادى ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، هذا الى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء ، والسادة الرؤساء ، ولا والله أن رأيت فيهم ،

أبهى منظراً ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أنعم كفاً ، ولا أندى راحة ، منك ياأمير المؤمنين ووالله لو ألقى فى روعى أنى أتحدث عنك ماقلت لك ماقلت. فأعظم له الجائزة على شعره ، وأضعف له على كلامه ، وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى والله جميع من حضر انهم قاموا ذلك المقام

ثم رجع بنا القول الى الكلام الاول . قال ابن الاعرابى ، قال معاوية بن أبى سفيان لصحار بن عياش العبدى : ماهذه البلاغة التى فيكم ؟ قال : شىء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا . فقال له رجل من عرض القوم : ياأمير المؤمنين [هم] بالبسر والرطب أبصر منهم بالخطب . فقال له صحار : أجل ، والله انا لنعلم ان الريح لتنفخه ، وأن البرد ليعقده ، وأن القمر ليصبغه ، وان الحر لينضجه . فقال له معاوية : ماتعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الايجاز . قال له معاوية : وما الايجاز ؟ قال له صحار: أن تجيب فلا تبطىء ، وأن تقول فلا تخطىء. فقال معاوية : أو كذلك تقول ؟ قال صحار : أقالنى ياأمير المؤمنين ، لا تبطىء ولا تخطىء

وشأن عبد القيس عجيب ، وذلك انهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة فى العرب . ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سرة البادية ، وفى معدن الفصاحة ، وهذا عجب . ومن خطبائهم المشهورين صعصعة بن صوحان ، وزيد بن صوحان ، وشيخان بن صوحان . ومنهم صحار بن عياش . وصحار من شيعة عثمان ، وبنو صوحان من شيعة على. ومنهم مصقلة بن رقبة ، ورقبة بن مصقلة ، وكرب بن رقبة

وإذا صرنا إلى ذكر الخطباء والنسابين ذكرنا من كلام كل واحد منهم بقدر مايحضرنا وبالله التوفيق

قال لى ابن الاعرابى ، قال لى المفضل بن محمد الضبى(١) ، قلت لاعرابى منا : ماالبلاغة ؟ قال : الايجاز فى غير عجز ، والاطناب فى غير خطل . قال ابن الاعرابى فقلت للمفضل : ما الايجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد . قال ابن الاعرابى : قيل لعبد الله بن عمر : لو دعوت الله لنا بدعوات ؟ فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا . فقال رجل : لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : نعوذ بالله من الاسهاب

(١) أنظر ترجمة المفضل محررة بقلمنا فى كتاب المفضليات الذى شرحناه ونشر حديثاً

﴿ باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والانبياء والفقهاء والامراء ﴾
(ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل)

منهم زيد بن صوحان

ومنهم أبو وائله إياس بن معاوية المزنى القاضى القائف وصاحب الزكن والمعروف بجودة الفراسة ، ولكثرة كلامه قال له عبدالله بن شُبْرُمَة : أنا وأنت لا نتفق ، انت لا تشتهى ان تسكت ، وانا لا اشتهى ان اسمع ، واتى حلقة من حلق قريش فى مسجد دمشق فاستولى على المجلس ، ورأوه احمر دمما باذ الهيئة قشيفاً فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا اليه وقالوا : الذنب مقسوم بيننا و بينك ، اتيتنا فى زى مسكين تكلمنا بكلام الملوك . ورايت ناسا يستحسنون جواب إياس حين قيل له : ما فيك عيب غير انك معجب بقولك . قال : أفأعجبكم قولى ؟ قالوا : نعم . قال : فانا احق بان اعجب بما اقول و بما يكون منى - منكم

والناس حفظك الله لم يضعوا ذكر العجب فى هذا الموضع . والمعيب عند الناس ليس هو الذى يعرف ما يكون منه من الحسن . والمعرفة لا تدخل فى باب التسمية بالعجب ، والعجب مذموم . وقد جاء فى الحديث « إن المؤمن من ساءته سيئته وسرته حسنته » وقيل لعمر : فلان لا يعرف الشر . قال : ذلك أجدر أن يقع فيه . وانما العجب اسراف الرجل في السرور بما يكون منه ، والافراط في استحسانه حتى يظهر ذلك منه فى لفظه وفى شمائله . وهو كالذى وصف به صَعْصَعَةُ بنُ صُوْحَانَ المُنذِرَ بنَ الجارود عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : أما والله انه مع ذلك لنظار فى عطفيه ، تفال فى شراكيه ، تعجبه حمرة برديه

قال أبو الحسن : قيل لاياس : مافيك عيب إلا كثرة الكلام . قال : فتسمعون صوابا أم خطأ ؟ قالوا : بل صوابا . قال : فالزيادة من الخير خير . وليس كما قال ، للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والملال ، فذلك الفاضل هو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الاسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه . وذكر الأصمعى أن عمر بن هبيرة لما أراده (١) على القضاء قال : إنى لا أصلح له . قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأنى عيى ، ولأنى دميم ، ولأنى حديد . قال

(١) لما أراده : يعنى لما أراد إياس بن معاوية

ابنُ هُبيرة : أما الحدة فان السوط يقوّمك ، وأما الدَّمامة فانى لا أريد أن أحاسن بك أحداً ، وأما العى فقد عبرت عما تريد. فان كان إياس عند نفسه عيياً ، فذاك أجدر ان يهجر الاكثار . وبعد هذا فما نعلم أحداً رمى إياساً بالعى وإنما عابوه بالاكثار . وذكر صالح بن سليمان عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث قال : مارأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا ما كان من عقل الحجاج بن يوسف ، وإياس بن معاوية ، فان عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيراً . وقال قائل لاياس : لم تعجل بالقضاء ؟ فقال له إياس : كم لكفك من إصبع ؟ قال : خمس . قال : عجلت . قال : لم يعجل من قال بعد ماقتل الشيء علماً ويقينا . قال إياس : فهذا هو جوابى لك . وكان كثيراً ماينشد قول النابغة الجعدى :

أَبَى لى البَلاء وأنى امرؤٌ إِذَا ماتَبَيَّنْتُ لم أَرْتَبِ

قال: ومدح سَلَمَةُ بْنُ عياشٍ سوَّارَ بنَ عبد الله بمثل ماوصف به إياس نفسه حين قال :

وأوقَفَ عند الأمرِ مالم يَبِنْ لهُ وأمْضَى إِذا ماشَكَّ ما كان ماضيا

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى الى عدىّ بن أرطاة : انَّ قِبلك رجلين من مزينة فول أحدهما قضاء البصرة . يعنى بكر بن عبد الله المزنى ، وإياس بن معاوية . فقال بكر : والله ما أحسن القضاء ، فان كنت صادقاً فما يحل لك أن توليني ، وان كنت كاذباً انها لأحراها. وكانوا اذا ذكروا البصرة قالوا شيخها الحسن ، وفتاها بكر . وقال اياس بن معاوية : لست بخب والخب لايخدعنى ، ولا يخدع ابن سيرين ، وهو يخدع أبى ويخدع الحسن . ودخل الشام وهو غلام فتقدم خصماً له ـ وكان الخصم شيخاً كبيراً ـ الى بعض قضاة عبد الملك بن مروان ، فقال له القاضى : أتتقدم شيخاً كبيراً ؟ قال الحق اكبر منه . قال : أسكت . قال : فمن ينطق بحجتى ؟ قال : لا أظنك تقول حقاً حتى تقوم ؟ قال : لااله الا الله ، أحقاً هذا أم باطلا ؟ فقام القاضى فدخل على عبد الملك من ساعته فخبره بالخبر . فقال عبد الملك : اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام لايفسد علىَّ الناس. فاذا كان من إياسٌ وهو غلام يخاف على جماعة أهل الشام فما ظنك به وقد كبرت سنه ، وعض ناجذه ؟

وجملة القول فى اياس انه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمى القضاة ، وكان فقيه البدن ، رقيق المسلك فى الفطن ، وكان صادق الحدس نقّاباً ، وعجيب الفراسة ملهما ، وكان

عفيف الطعم ، كريم المدخل والشيم ، وجيها عند الخلفاء ، مقدما عند الاكفاء . وفى مزينة خير كثير

ثم رجعنا الى القول الاول : ومنهم ربيعة الرأى وكان لا يكاد يسكت . قالوا : وتكلم يوما فاكثر وأعجب بالذى كان منه ، فالتفت الى اعرابى كان عنده فقال : ياأعرابى ، ما تعدون العى فيكم ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم . وكان يقول: الساكت بين النائم والاخرس

ومنهم عبيد الله بن محمد بن حفص التيمى ، ومحمد بن حفص هو ابن عائشة ، ثم قيل لعبيد الله بن أبى عائشة ، وكان كثير العلم والسماع ، متصرفا فى الخبر والاثر ، وكان من أجود قريش ، وكان لا يكاد يسكت ، وهو فى ذلك كثير الفوائد . وكان أبوه محمد ابن حفص عظيم الشأن كثير العلم ، بعث اليه ميخاب خليفته فى بعض الامر . فأتاه فى حلقته فى المسجد . فقال له فى بعض كلامه : أبو من أصلحك الله ؟ فقال له : هلا عرفت هذا قبل مجيئك ؟ وان كان لا بد لك من هذا فاعترض من شئت فاسأله . فقال له : إنى أريد أن تخلينى . قال : أفى حاجة لك أم فى حاجة لى ؟ قال : بل فى حاجة لى . قال : فالقنى فى المنزل . قال : فان الحاجة لك . قال : مادون اخوانى ستر

ومنهم محمد بن مسعر العقيلى ، وكان كريما ، كريم المجالسة ، يذهب مذهب النساك ، وكان جواداً . مر صديق له من بنى هاشم بقصر له و بستان نفيس فبلغه أنه استحسنه فوهبه له

ومنهم أحمد بن المعذل بن غيلان ، كان يذهب مذهب مالك ، وكان ذا بيان وتبحر فى المعانى وتصرف فى الالفاظ

وممن كان يكثر الكلام جداً الفضل بن سهل ، ثم الحسن بن سهل فى أيامه . وحدثنى محمد بن الجهم ودؤاد بن أبى دؤاد قالا : جاس الحسن بن سهل فى مصلى الجماعة لنعيم بن حازم ، فاقبل نعيم حافيا حاسرا وهو يقول : ذنبى أعظم من السماء ، ذنبى أعظم من الهواء ، ذنبى أعظم من الماء . قالا : فقال الحسن بن سهل : على رسلك تقدمت منك طاعة ، وكان آخر أمرك الى توبة ، وليس للذنب بينهما مكان وليس ذنبك فى الذنوب باعظم من عفو أمير المؤمنين فى العفو

ومن هؤلاء على بن هشام ، وكان لا يسكت ولا أدرى كيف كان كلامه

قال وحدثنى مهدى بن ميمون قال : حدثنا غيلان بن جرير قال : كان مطرف ابن عبد الله يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهيه . يقول: لا تقبل بحديثك على من

لا يقبل عليك بوجهه . وقال عبدالله بن مسعود : حدث الناس ماحدجوك باسماعهم ولحظوك بابصارهم ، فاذا رأيت منهم فترة فامسك . قال : وجعل السماك يوما يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده ؟ فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : الى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملّه من فهمه . قال عباد بن عَوام عن شُعبة ، عن قتادة ، قال : مكتوب فى التوراة : لا يعاد الحديث مرتين . وسفيان بن عيينة عن الزهرى قال : إعادة الحديث أشد من نقل الصخر . وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤنة الاستماع منك

وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى اليه ولا يؤتى الى وصفه ، وانما ذلك على قدر المستمعين له ومن يحضره من العوام والخواص . وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود وهرون وشعيب وابرهيم ولوط وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة . لانه خاطب جميع الامم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبى غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب . وأما حديث القصص والرقة فانى لم أر أحداً يعيب ذلك ، وما سمعناه باحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الالفاظ وترداد المعانى عياً إلا ما كان من النّخَار بن أَوْس العُذْرِىّ (١) فانه كان إذا تكلم فى الحمالات ، وفى الصفح والاحتمال ، وصلاح ذات البين ، وتخويف الفريقين من التفانى والبوار ، كان ربما ردد الكلام على طريق التهويل والتخويف ، وربما حمى فنخر

قال ثُمامة بن أشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الاعادة ، ولو كان فى الارض ناطق يستغنى بمنطقه عن الاشارة لاستغنى جعفر عن الاشارة ، كما استغنى عن الاعادة . وقال مرة : مارأيت أحداً كان لا يتحبس ، ولا يتلجلج ، ولا يتنحنح ، ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى . وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ قال : أن يكون

(١) النخار بن أوس بن الحرث بن هزيم القضاعى . كان من المقدمين فى علم النسب ، وقال عنه ابوعبيدة انه انسب العرب . وكان فصيحا بليغاً منطيقا ، دخل معاوية فازدراه وكان عليه عباءة فقال : إن العباءة لا تكلمك

الاسم يحيط بمعناك ، ويُجَلِّى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة. والذى لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيداً من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنياً عن التأويل

وهذا هو تأويل قول الأصمعى : البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر

خبرنى جعفر بن سعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه قال : ذكرت لِعَمْرِو بن مَسْعَدَةَ توقيعات جعفر بن يحيى قال : قد قرأت لام جعفر توقيعات فى حواشى الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصارا وأجمع للمعانى . قال : ووصف اعرابى أعرابيا بالايجاز والاصابة فقال . كان والله يضع الهناء مواضع النقب . يظنون أنه نقل قول دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ فى الخنساء بنت عمرو بن الشريد الى ذلك الموضع . وكان دريد قال فيها :

ما إنْ رَأَيْتُ ولاَ سَمِعْتُ بِهِ كَاليوم طَالِى أَيْنُقٍ جُرْبِ (١)
مُتَبَذِّلاً تَبْدُو محاسِنُهُ يَضَعُ الْهِنَاءَ مواضِعَ النُّقْبِ

ويقولون فى إصابة عين المعنى بالكلام الموجز : فلان يفل الحز ، ويصيب المفصل . وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق فجعلوه مثلا للمصيب الموجز . وأنشدنى أبو قطن الغنوى . وهو الذى يقال له شهيد الكرم ، وكان أبين من رأيته من أهل البدو والحضر :

فلو كنتُ مولَى قَيْسِ عَيْلاَنَ لَم تَجِدْ علىَّ لمخلوقٍ مِنَ النّاسِ دِرْهَمَا
وَلَكِنَّنِي مولَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا فلستُ أُبَالِى أَنْ أَدِينَ وَتَغْرَمَا
أُولئك قومٌ بارَكَ اللهُ فيهمُ على كلِّ حالٍ ما أَعَفَّ وَأَكْرَمَا
جُفَاةُ المَحَزِّ لاَ يُصيبونَ مَفْصِلاً وَلاَ يأْكُلُونَ اللحمَ الا تَخَذُّمَا (٢)

يقول : هم ملوك وأشباه الملوك ، ولهم كفاة فهم لا يحسنون إصابة المفصل وأنشد أبو عبيدة فى مثل ذلك :

وصُلْعُ الرُّؤسِ عِظَامُ الْبُطونِ جُفَاةُ المَحَزِّ غِلاَظُ الْقَصَرْ (٣)

---

(١) كان فى الاصل من كلمة «فى الناس» ولما كانت الرواية الصحيحة «كاليوم» فقد اثبتناها هنا ايثاراً للصحيح على الفاسد (٢) التخذم : التكلف (٣) القصر :

وكذلك :

ليسَ براعى إبلٍ ولاَ غنَمْ ... ولاَ بجزّارٍ على ظهرٍ وضَمْ(١)

وقال الاخر وهو ابنُ الزّبَعرى :

وفتيانِ صدقٍ حسانِ الوجوهِ ... لايجدونَ لشيءٍ ألَمْ

منَ آلِ المغيرةِ لاَ يَشْهَدونَ ... عندَ المجازرِ لحمَ الوَضَمْ

وقال الراعى فى المعنى الاول :

فَطَبَّقْنَ عَرْضَ القفِّ حتى لَقِينَهُ ... كَما طَبَّقَتْ في العَظْمِ مُدْيَةُ جازِرِ

وأنشد الأصمعى :

وكفٌّ فَتًى لم يعرفِ السَّلْخَ قبلَهَا ... تَجُورُ يَداهُ في الأديمِ وتَجْرَحُ

وأنشد الاصمعى :

الاعناق (١) الوضم والوضمة : خشبة (أرمة) الجزار وقد نسب هذا البيت فى هامش النسخة التى طبعت سنة ١٣٣٢ الى الشريف الرضي مع أن الجاحظ كانت وفاته فى سنة ٢٥٥ وكانت ولادة الشريف فى سنة ٣٥٩ ، وقد كتبنا فى هذا وأمثاله نقداً نشرناه بجريدتنا «الثمرات» بعددها الصادر في ٢٠ يونيه سنة ١٩١٦. هذا والصحيح أن هذا البيت من أرجوزة لرشيد بن رميض العنزى فى شريح بن ضبيعة المعروف بالحطم . وكان شريح هـذا غزا اليمن فى جموع من ربيعة فغنم وأسر وسبى، وكان من أسراه فرعان بن مهدى بن معديكرب عم الاشعث بن قيس الـكندى فمرفى عودته بمفازة ضل فيها الدليل ومات فرعان فى أيديهم عطشاً مع خلق كثير، وجعل شريح يسوق بأصحابه سوقا عنيفاً حتى أدركوا الماء فقال فيه رشيد :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم ... نام الحداة وابن هند لم ينم

بات يقاسـيها غلام كالزلم ... خدلج الساقين خفاق القدم

قد لفها الليـل بسواق حطم ... ليس براعى ابل ولا غنم

ولا بجزار على ظهر وضم

فلقب من يومئذ بالحطم لقول رشيد فيه . أدرك الحطم الاسلام وأسلم ثم ارتد بعد وفاة النبى ﷺ

لا يُمسِكُ العُرْفَ إلاَّ رَيْثَ يُرْسِلُهُ ولا يُلاطِمُ عندَ اللَّحْمِ في السُّوقِ

وقد فسر ذلك لبيد بن ربيعة وبيّنه وضرب المثل به حيث قال فى الحكم بين عامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة :

يا هَرِمَ ابنَ الأكْرَمِينَ مَنْصِبا إنَّكَ قد أُوتِيتَ حُكْماً مُعْجِبا

فَطَبِّقِ المَفْصِلَ واغْنَمْ طَيِّبا

يقول : أحكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة بكلمة فصل و بأمر قاطع فتفصل بها بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين . وقد قال الشاعر فى هرم :

قَضَى هَرِمٌ يومَ المِرِيرَةِ بَيْنَهُمْ قَضَاءَ امرِيءٍ بالأوَّلِيَّةِ عالِمِ

قَضَى ثم وَلَّى الحُكْمَ مَنْ كانَ أَهْلَهُ وليس ذُنَابَى الرِّيشِ مثلَ القَوَادِمِ

ويقال فى الفحل اذا لم يحسن الضراب: جمل عياياء ، و جمل طباقاء. وقالت امرأة فى الجاهلية تشكو زوجها : زوجى عَياياء طباقاء وكل داء له دواء . حتى جعلوا ذلك مثلا للعى الفدم الذى لا يتجه للحجة . وقال الشاعر :

طباقاءُ لم يَشْهَدْ خُصوماً ولم يَقُدْ رِكاباً الى أكْوارِها حِينَ تَعْكِفُ

وذكر زُهَيْرُ بنُ أَبى سُلْمَى الخَطَلَ فعابه فقال :

وذِى خَطَلٍ فى القولِ يَحْسَبُ أنَّهُ مُصيبٌ فما يُلْمِمْ بهِ فهو قائِلُهْ

عَبَأْتُ له حلماً وأكْرمتُ غيرَهُ وأعرضْتُ عنه وهو بادٍ مَقَاتِلُهْ

وقال الشاعر :

شُمْسٌ اذا خَطِلَ الحديثُ أوانِسٌ يَرْقُبْنَ كلَّ مُجَذَّرٍ تِنْبَالِ

الشمس : مأخوذة من الخيل وهى الخيل المرحة الضاربة بأذنها من النشاط . والمجذر : القصير . والتنبال : القصير الدنىء

وقال ابو الاسود الدؤلى — واسم أبى الاسود ظالم بن عمرو — وكان من المقدمين فى العلم :

وشَاعِرِ سُوءٍ يَهْضِبُ القول ظالمـا كما اقْـتَمَّ أعْشَى مُظْلِمِ الليلِ حاطِبِ

وأنشد :

أعوذُ باللهِ الأعَزِّ الأكْرَمِ مِن قَوْلَىَ الشيءِ الذى لم أعْلَمِ

تَخَبُّطَ الأعمى الضريرِ الأيْهَمِ

وقال ابرهيم بن هرمة فى تطبيق المفصل ، وتلحق هذه بمعانى أخواتها قبل :

وعَمِيمَةٍ قد سُقْتُ فيها عائراً غُفْـلاً وفيهـا عائرٌ مَوْسُومُ

طَبَّقْتُ مَفْصِلَهَا بِغَـيْرِ حَدِيدةٍ فرآى العَدُوُّ عنَاىَ حَيْثُ أقومُ

وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بهـا جعفر بن يحيى كان ثمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه واستولى عليها دون جميع اهل عصره . وما علمت أنه كان فى زمانه قَرَوِىٌّ ولا بلدى كان بلغ من حُسن الإفهام مع قِلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التـكلف ما كان بلغه . وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك باسرع من معناه إلى قلبك قال بعض الـكتاب : معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه الواضحة فى مخارج كلامه كما وصف الخُـزَيمى شعرَ نفسه فى مديح أبى دُلَـف حيث يقول :

لهُ كَلِمٌ فيـكَ معْقُولَةٌ إزاءَ القلوبِ كرُكْبٍ وُقُوفْ

وأول هذه القصيدة :

أبَا دُلَفٍ دَلَفَتْ حاجَتى إليك وما خلْتُها بالدَّلُوف

ويظنون أن الخُـزيمى إنما احتذى في هذا البيت على أيوب بن القرّية حين قال له بعض السلاطين(١) ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف ، كانهن ركب وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف

وحدثنى صالح بن خاقان قال : قال شبيب بن شيبة : الناسُ موكلون بتفضيل جَودة الابتداء و بمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظ

(١) المراد ببعض السلاطين هنا هو الحجاج بن يوسف الثقفى وله مع ابن القرية خطوب

جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت . ثم قال شبيب : فان ابتليت بمقام لابدّ لك فيه من الاطالة فقدم إحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل قبل التقدم فى إحكام البلوغ فى شرف التجويد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئا ، فان قليلا كافياً خير من كثير غير شاف

ويقال انهم لم يروا قط خطيباً بليغا إلا وهو فى أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفاً أيام رياضته كلها إلى أن يتوقح وتستجيب له المعانى ويتمكن من الالفاظ ، إلا شبيب بن شيبة فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . قالوا : ولما مات شبيب بن شيبة أتاهم صالح المرى أو بعض من أتاهم للتعزية فقال : رحمة الله على أديب الملوك ، وجليس الفقراء ، وأخى المساكين. وقال الراجز:

إذا غدت سعدٌ على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس الى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

حدثنى صديق لى قال: قلت للعتابى: ما البلاغة ؟ قال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة ، فهو بليغ . فاذا اردت اللسان الذى يروق الالسنة ويفوق كل خطيب باظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق. قال: فقلت له: قد عرفت الاعادة والحبسة فما الاستعانة؟ قال: أما تراه اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : ياهناه ، وياهذا ، وياهيه ، واسمع منى ، واستمع الىّ ، وافهم عنى ، أو لست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عِىٌ وفساد

قال عبدالكريم بن روح الغفارى ، حدثنى عمر الشمرى قال : قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد ؟ قال : من لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال : ليس هذا أريد ؟ قال : قال النبى ﷺ : إنا معشر الانبياء بكاء .

أى قليلو الكلام . ومنه قيل : رجل بكى . وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله

قال السائل : ليس هذا أريد ؟ قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ، ما لا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل : ليس

هذا أريد ؟ قال عمرو : فكانك إنما تريد تحبير اللفظ فى حسن الافهام ؟ قال : نعم . قال : إنك إن اردت تقرير حجة الله فى عقول المتكلمين ، وتخفيف المؤنة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالالفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الاذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب

قلت لعبد الكريم : من هذا الذى صبر له عمرو هذا الصبر ؟ قال : قد سألت عن ذلك أبا حفص فقال : ومن كان يجترئ عليه هذه الجراءة الا حفص بن سالم ؟

قال عُمر الشمرى: كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم ، فان تكلم لم يكد يطيل. وكان يقول : لاخير فى المتكلم اذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه ، واذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف ، ولاخير فى شىء يأتيك به التكلف

وقال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه ـ لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك .

وكان موسى بن عمران يقول : لم أر أنطق من أيوب بن جعفر ويحى بن خالد. وكان ثمامة يقول : لم أر انطق من جعفر بن يحى بن خالد . وكان سهل بن هرون يقول. لم أر أنطق من المأمون امير المؤمنين . وقال ثمامة : سمعت جعفر بن يحى يقول لكتابه : ان استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا . وسمعت أبا العتاهية يقول: لو شئت أن يكون حديثى كله شعراً موزونا لكان . وقال اسحق بن حسان ابن قوهة : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط ، سئل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة . فمنها مايكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها مايكون فى الاشارة ، ومنها مايكون فى الحديث ، ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها مايكون جوابا ، ومنها مايكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها مايكون سجعاً وخطباً ، ومنها مايكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الابواب ألوحى فيها والاشارة الى المعنى . والايجاز هو البلاغة . فاما الخطب بين السماطين وفى اصلاح ذات البين فالاكثار فى غير خطل ، والاطالة فى غير املال ، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته

كأنه يقول : فرّق بين صدر خطبة النكاح ، و بين صدر خطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة المواهب ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فانه لاخير فى كلام لا يدل على معناك ، ولا يشير الى مغزاك ، والى العمود الذى اليه قصدت ، والغرض الذى اليه نزعت .

قال : فقيل له : فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف ؟ قال : اذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فانه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال

قال : والسنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب و يقصر المجيب . ألا ترى الى قيس بن خارجة بن سنان لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخرة راحلتى الخاطبين فى شأن حمالة داحس والغبراء ، وقال : مالى فيها أيها العشمتان ؟ قالا : بل ماعندك ؟ قال : عندى قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس الى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل ، وأنهى فيها عن التقاطع

قالوا : فخطب يوماً الى الليل ، فما أعاد فيها كلمة ولا معنى

فقيل لابى يعقوب : هلا أكتفى بالامر بالتواصل عن النهى عن التقاطع ؟ أو ليس الامر بالصلة هو النهى عن القطيعة ؟ قال : أو ماعلمت أن الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الافصاح والتكشف ؟

قال : وسئل ابن المقفع عن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مايتصعدنى كلام كما تصعدنى خطبة النكاح . قال : ماأعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق ، ولأنه اذا كان جالساً معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، واذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية . وقد ذهب ذاهبون لى أن تأويل قول عمر يرجع الى أن الخطيب لا يجد بداً من تزكية الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زوراً وغر القوم من صاحبه . ولعمرى ان هذا التأويل ليجوز اذا كان الخطيب موقوفاً على الخطابة ، فأما عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأشباهه من الأئمة الراشدين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك الا فيمن يستحق المدح

وروى أبو مخنف عن الحارث الأعور قال : والله لقد رأيت علياً وانه ليخطب

قاعداً كقائم ، ومحارباً كسالم . يريد بقوله ، قاعداً ، خطبة النكاح

وقال الهيثم بن عدى : لم تكن الخطباء تخطب قعوداً إلا فى خطبة النكاح

وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل، وفى الكلام يوم الجمع ، آى من القرآن . فان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وحسن الموقع. قال الهيثم: قال عمرانُ بنُ حطّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد ـ أو قال عند ابن زياد ـ فأعجب بها زياد وشهدها عمى وأبى . ثم أنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن

وأكثر الخطباء لا يتمثلون فى خطبهم الطوال بشىء من الشعر ، ولا يكرهونه فى الرسائل إلا أن تكون الى الخلفاء . وسمعت مؤملَ بنَ خاقان ـ وذكر فى خطبته تميم بن مر ـ فقال : إن تميما له الشرف القديم العوْد ،والعز الأقعس، والعدد الهيضل، وهي فى الجاهلية القدّام ، والذّروة والسنام . وقد قال الشاعر :

فقلتُ لهُ وأنكرَ بعضَ شانِى ألم تعرفْ رِقابَ بنى تميمِ ؟

وكان المؤمّل وأهله يخالفون جمهور بنى سعد فى المقالة، فلشدة تحدّبه على سعد وشفقته عليهم ،كان يناضل عند السلطان كل من سعى على أهل مقالتهم وان كان قوله خلاف قولهم حدباً عليهم . وكان صالحُ المرى القاصّ العابد البليغ كثيراً ماينشد فى قصصه وفى مواعظه هذا البيت :

فباتَ يُرَوّى أصُولَ الفَسيل فعاشَ الفَسيلُ ومَاتَ الرَّجُل

وأنشد الحسن فى مجلسه وفى قصصه وفى مواعظه :

ليسَ من ماتَ فاستَراحَ بمَيْتٍ إنّمَا المَيْتُ مَيّتُ الأحْيـاءِ

وأنشد عبدُ الصمد بنُ الفَضل بن عيسى بن أبان الرقاشى الخطيب القاص الشجاع ، إما فى قصصه وإما فى خطبة من خطبه رحمه الله سبحانه وتعالى :

أرضٌ تَخَيَّرَها لطيبِ مَقيلِها كَعْبُ بنُ مَامَةَ وابنُ أمِّ دُؤادِ

جَرَتِ الرّياحُ على مَحَلِّ دِيارِهِمْ فَـكأنّهُمْ كانوا على مِيعادِ

فأرَى النعيمَ وكُلّ ما يُلْهَى بِهِ يَوْماً يَصِيرُ إلَى بِلًى ونَفَادِ

وقال أبو الحسن : خطب عبد الله بن الحسن على منبر البصرة فى العيد فأنشد

فى خطبته :

أَيْنَ المُلوكُ التى عن حظِّهَا غفلَتْ ... حتَّى سَقاهَا بكأْسِ الموتِ ساقِيها

تلكَ المدائنُ بالآفاقِ خالِيَةٌ ... أمْسَتْ خلاءً وذاقَ الموتَ بانِيها

وكان مالك بن دينار يقول فى قصصه : ما أشد فطام الكبير ؟

وهو كما قال القائل :

وترُوضُ عِرْسَكَ بَعْدَ ما هَرِمَتْ ... ومِنَ العَنَاءِ رياضَةُ الهَرِمِ

ومثله أيضاً قول صالح بن عبد القدوس:

والشيخُ لا يترُكُ أخلاقَهُ ... حتّى يُوَارَى في ثَرَى رَمْسِهِ

إذا ارْعَوَى عادَ إلَى جَهْلِهِ ... كَذِي الضَنَى عادَ إلى نُكْسِهِ

قال كُلثوم بن عَمْرو العَتّابى :

وكنتَ امرأً لو شئتَ أن تبلُغَ المدَى ... بلغتَ بأدْنَى نِعْمَةٍ تستَديمُها

ولَكِنْ فِطامَ النَفْسِ أثْقَلُ مَحْمَلاً ... مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّماءِ حِينَ تَرُومُها

وكانوا يمدحون الجهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت .ولذلك تشادقوا فى الكلام ومدحوا سعة الفم ، وذموا صغر الفم . حدثنى محمد بن بشير الشاعر : قيل لاعرابى ، ما الجمال ؟ قال القامة ، وضخم الهامة ، ورحب الشدق،وبعدالصوت.

وسال جعفر بن سليمان أبا المخشّ عن ابنه المخش ، وكان جزع عليه جزعاشديدا قال : صف لى المخش ؟ فقال : كان أشدق خرطمانيا سائلا لعابه كانما ينظر من قلتين ، كأن ترقوته بوان أو خالفة ، كأن منكبه كركرة جمل ثقال ، فقأ الله عينى إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله . قال . وقلت لاعرابى : ما الجمال ؟ قال : غؤور العينين ، واشراف الحاجبين ، ورحب الشدقين

قال دغفل بن حنظلة النسابة والخطيب العلامة حين ساله معاوية عن قبائل قريش فلما انتهى الى بنى مخزوم الى بنى مخزوم . قال:معزى مطيرة،عليها قشعريرة الا بنى المغيرة ، فان فيهم تشادق الكلام ، ومصاهرة الكرام

وقال الشاعر فى عمرو بن سعيد الاشدق :

تَشَادَقَ حتى مَالَ بِالْقَوْلِ شِدْقُه وكلُّ خَطِيبٍ لا أُبالكَ أشْدَقُ

وأنشد أبو عبيدة :

وصُلْعُ الرُّؤسِ عِظَامُ البُطُونِ رِحابُ الشِّدَاقِ طِوَالُ القَصَرْ

وتكلم يوماً عند معاوية الخطباء فأحسنوا فقال : والله لأرمينهم بالخطيب لأشدق ، قم يا يزيد فتكلم

وهذا القول وغيره من الاخبار والاشعار حجة لمن زعم أن عمرو بن سعيد لم يسم لاشدق للفقم ولا للقوة . وقال يحيي بن نوفل في خالد بن عبد الله القسري :

بَلَّ السَّرَاوِيلَ مِنْ خَوْفٍ وَمِن وَهَلٍ وَاسْتَطْعَمَ الماءَ لَمَّا جدَّ في الْهَرَبِ

وأَلْحَنُ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ قَاطِبَةً وكانَ يُولَعُ بِالتَّشْدِيقِ فِي الْخُطَبِ

ويدلك على تفضيلهم سعة الاشداق وهجائهم ضيق الافواه قول الشاعر :

لَحَا اللهُ أفْوَاهَ الدَّبَى من قَبِيلَةٍ إذا ذكرتْ فى النَّائِباتِ أُمُورها

وقال الآخر :

وأفْوَاهُ الدَّبَى حَامُوا قَلِيلاً وليسَ أخو الحِمَايَةِ كَالضَّجُورِ

وإنما شبه أفواههم بافواه الدَّبى لصغر أفواههم وضيقها . وعلى ذلك المعنى هجا عَبدة بنُ الطبيب حيَّ بن هزال وابنيه فقال :

تدعُو بَنِيكَ عِبَّاداً وجرثُمَةً يا فأرَةً شَجَّها فى الجُحْرِ مِحْفَارُ

وقد كان العباسُ بنُ عبد المطلب جهيراً ، جهير الصوت ، وقد مدح بذلك ، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله ﷺ فنادى العباس : يا أصحاب سورة البقرة هذا رسول الله ﷺ . فتراجع القوم وأنزل الله عز وجل النصرة وأتى بالفتح .

أخبرنى ابنُ الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان قَيْسُ بنُ مَخْرمة بن المطلب بن عبد مناف يمكو حول البيت فيسمع ذلك من حراء . قال الله تعالى « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » فالتصدية التصفيق. والمكاء التصفير، أو شبيه بالصفير . ولذلك قال عنترة :

وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجَدَّلاً تَمْكُو فريصتُهُ كشِدْقِ الأعلَمِ

وقال العجير السلولى فى شدة الصوت :

ومنهنّ قَرْعَى كلّ بابٍ كأنّما بِهِ القَوْمُ ، يَرْجُونَ الأذِينَ نُشُورُ
فجئتُ وخَصْمِى يَصْرِفُونَ نُيوبَهُم كما قُصِبَتْ بَيْنَ الشِّفَارِ جَزُورُ
لَدَى كُلّ مَوْنوقٍ بهِ عِنْدَ مِثْلِهَا لهُ قَدَمٌ فِى النّاطِقِينَ خَطِيرُ
جَهِيرٌ وَمُمْتَدُّ العِنَانِ مُنَاقِلٌ بَصِيرٌ بِعَوْرَاتِ الكلامِ خَبِيرُ
فظَلَّ رِداءُ العَصْبِ مُلْقًى كأنّهُ سَلَى فَرَسٍ تَحْتَ الرِّجَالِ عَقِيرُ
لو انّ الصُّخُورَ الصُّمَّ يَسْمَعْنَ صَلْقَنَا لَرُحْنَ وفي أعْرَاضِهِنَّ فُطُورُ

الصلق : شدة الصوت ، وفطور: شقوق. وقال مُهَلْهِل :

ولَوْلا الرِّيحُ أسْمِعُ أهْلَ نَجْدٍ صَلِيلَ البَيْضِ تُقْرَعُ بالذُّكُورِ

والصريف : صوت احتكاك الانياب ، والصليل : صوت الحديد ههنا . وفى شدة الصوت يقول الأعشى فى وصفه الخطيب بذلك :

فيهم الخِصْبُ والسَّمَاحَةُ وَالنَّجْـ ـدَةُ جَمْعاً والخاطِبُ الصَّلاّقُ

وقال بَشار بنُ برد فى ذلك ويهجو بعض الخطباء :

ومِنْ عَجَبِ الأيّامِ أنْ قُمْتَ ناطِقاً وَأنْتَ ضَئِيلُ الصَّوْتِ مُنْتَفِخُ السَّحْرِ

ووقع بين فتىً من النصارى وبين ابن فهريز كلام ، فقال له الفتى : ماينبغى أن يكون فى الأرض رجلٌ واحدٌ أجهل منك ؟ وكان ابن فهريز فى نفسه اكثر الناس علماً وأدباً ، وكان حريصاً على الجثالقة ، فقال للفتى : وكيف حلات عندك هذا المحل ؟ قال: لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديدَ القامة،وأنت قصيرُ القامة ، ولا نتخذه الا جهيرَ الصوت، جيدَ الخلق،وأنت دقيقُ الصوت ردىءُ الخلق ، ولا نتخذه الا وهو وافرُ اللحية عظيمُها وأنت خفيفُ اللحية صغيرُها ، وأنت تعلم أنا لانختار للجثلقة الا رجلاً زاهداً فى الرياسة،وأنت أشدُّ الناس عليها كَلَباً،وأظهرهم لها طلباً ، فكيف لاتكون أجهل الناس وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة ؟ وأنت

قد شَغَلْتَ فى طلبها بالك ، وأسهرت فيها ليلك ؟ وقال أبو الحجناء فى شدة الصوت:

إِنِّى إِذَا مَا زَبَّبَ الأَسْدَاقُ وَالْتَجَّ حَوْلِى النَّقْعُ وَاللَّقْلَاقُ

نَبْتُ الجَنَانِ مِرْجَمٌ وَدَّاقُ

المِرجم: الحاذق بالمراجمة بالحجارة . والوداق: الذى يسيل الحجارة كالودق من المطر . وجاء فى الحديث « مَنْ وُقِي شرَّ لَقْلَقِه وقَبْقَبِه وذَبْذَبِه وُقِي الشَّر » يعنى لسانه وبطنه وفرجه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في بواكى خالد بن الوليد ابن المغيرة: وماعليهن أن يُرقن من دموعهن على أبى سُليمان مالم يكن نَقْعٌ أو لَقْلَقَةٌ ؟ وجاء فى الاثر « ليس منا من حَلق أو صَلق أو سَلق أو شق »

ومما مدح به العُمانى هرون الرشيد بالقصيد دون الرجز قوله :

جَهِيرُ العُطَاسِ شَدِيدُ النِّيَاطِ جَهِيرُ الرُّوَاءِ جَهِيرِ النَّغَمْ

وَيَخْطُو على الأَينِ خَطْوَ الظَّلِيمِ وَيَعْلُو السِّمَاطَ بِجِسْمٍ عَمَمْ

النياط : معاليق القلب . الأين : الاعياء . الظليم: ذكر النعام . عمم : حسن . ومنه قيل : نبت عميم ، أى حسن كثير . ويقال: ان جسمه لعممٌ ، وانه لعم الجسم، اذا كان تاماً .

وكان الرشيد اذا طاف بالبيت جعل لازاره ذنبين عن يمين وشمال ثم طاف بأوسع من خطو الظليم ، وأسرع من رجع يد الارنب . وقد أخبرنى ابرهيمُ بن السندى بمحصول ذرع ذلك الخطو ، الا انى أحسبه فراسخ فيما رأيته يذهب اليه . قال ابرهيم ـ ونظر اليه اعرابى فى تلك الحال والهيئة ـ فقال : « خَطْوَ الظَّلِيمِ رِيعَ مُمْسًى فَانْشَمَرْ »

ريع . فزع . ممسى : حين المساء . انشمر : جد فى الهرب .

وحدثنى ابراهيم السندى قال لما أتى عبدَ الملك بن صالح وفدُ الروم، وهو فى البلاد أقام على رأسه رجالا فى السماطين لهم قَصَرٌ وَهَامٌ ، وَمَنَاكِبُ وأجسامٌ ، وشوارب وشعور . فبيناهم قيام يكلمونه، ومنهم رجل وجهه فى قفا البطريق اذ عطس عطسة ضئيلة فلحظه عبد الملك فلم يدر أىَّ شىء أنكر منه ! فلما مضى الوفد قال له: ويلك، هلا اذ كنت ضيق المنخر كزّ الخيشوم أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العلج ؟

وفى تفضيل الجهارة يقول شبة بن عقال بعقب خطبته عند سليمان بن على ابن عبد الله بن عباس :

أَلاَ لَيْتَ أُمَّ الجَهْمِ واللهُ سامِعٌ ... تَرَى حَيْثُ كانَتْ بالعِراقِ مَقامي

عَشِيَّةَ بَذَّ النّاسَ جَهْرِى ومَنْطِقِى ... وبَذَّ كلامَ النّاطِقِينَ كلامى

وقال طحلاء يمدح معاوية بالجهارة وبجودة الخطبة :

رَكُوبُ المَنابِرِ وَثّابُها ... مِعَنٌّ بخطبته مِجْهَرُ

تُرِيعُ إِلَيْهِ هَوادى الكلام ... إِذا ضَلَّ خطْبَتَهُ المِهْذَرُ

معنّ : تعرض له الخطبة فيخطبها مقتضبا لها. تُريع اليه : ترجع إليه. هوادى الكلام : أوائله . فأراد أن معاوية يخطب فى الوقت الذى يذهب فيه كلام المهذر. والمهذر . المكثار

وزعموا أن أبا عطية عفيفا النصرى فى الحرب التى كانت بين ثقيف وبين بنى نصر لما رأى الخيل بعقوته يومئذ وأيس نادى : ياصباحاه ، أتيتم يابنى نصر فألقت الحبالى أولادها من شدة صوته . قالوا : فقال ربيعةُ بنُ مسعود يصف تلك الحرب وصوت عفيف :

عُقاماً ضَرُوساً بينَ عَوْفٍ ومالكٍ ... شَدِيداً لَظاها تَتْرُكُ الطِّفْلَ أَشْيَبا

وكانَتْ جُعَيلٌ يَوْمَ عمرو أَراكَةٍ ... أُسُودَ الغَضا غادَرْنَ لَحْماً مُنَرَّبا

وبومٍ بِمَكْرُوناءَ شَدَّتْ مُعَتِّبٌ ... بِغاراتِها قَدْ كانَ يوماً عَصَبْصبا

فأَسْقَطَ أَحْبالَ النِّساءِ بِصَوْتِهِ ... عفيفٌ وقد نادى بنَصْرٍ فطَرَّبا

وكان أبو عروة ـ الذى يقال له أبو عروة السباع ـ يصيح بالسبع وقداحتمل الشاة فيخليها ، ويذهب هاربا على وجهه . فضرب به الشاعر المثل ، وهو النابغة الجعدى فقال :

وأَزْجُرُ الكاشحَ العَدُوَّ إِذا اغْتا ... بَكَ عِندى زَجْراً على أَضَمِ

زَجْرَ أَبِى عُرْوَةَ السِّباعَ إِذا ... أَشْفَقَ أَنْ يلْتَبِسْنَ بِالغَنَمِ

وأنشد أبو عمرو الشيبانى لرجل من الخوارج يصف صيحة شبيب بن يزيد ابن نعيم (١) قال أبو عبيدة وأبو الحسن : كان شبيب يصيح فى جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوى أحد على أحد . وقال الشاعر فيه :

إنْ صَاحَ يَوْماً حَسِبتَ الصَّخْرَ مُنْحَدِراً والرِّيحَ عاصِفَةً والمَوْجَ يَلْتَطِمُ

قال أبو العاصى : أنشدنى أبو محرز خلف بن حيان (٢) ـ وهو خلف الاحمر مولى الاشعريين فى ـ عيب النشادق :

---

(١) هو شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى الحرورى الخارجى أمير الخوارج في عصره ، ومزلزل أركان الدولة الاموية أيام عبد الملك بن مروان ، صاحب الوقائع الهائلة ، والاحداث العظيمة مع شيخ العتاة ، وأسد الولاة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وقاتل قواده ، ومبيد أجناده . دخل الكوفة ـ وهى غاصة بجند السلطان ، حاشدة بأبطال الدولة وعلى رأسهم الحجاج ـ عنوة ليقيل زوجته غزالة وفاء نذرها من الصلاة في مسجدها الجامع فأدت صلاتها ، وأطالت فيها ماشاءت ، ثم خرج يخترق بها صفوف أعدائه ولم يصب بأذى ، ولم ينلها مكروه .

وكانت زوجته غزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم ، فكانت تباشر الحروب بنفسها ، وتخوض المعامع بسيفها ، وتصرع الأبطال بقوة جنانها ، وهى التى لما أحجم الحجاج فى إحدى المواقع عن مبارزتها عيره بعض الشعراء بقوله :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة فى الوغى ؟ بل كان قلبك فى جناحى طائر

ولد شبيب سنة ٢٥ هـ ٦٤٥ م ومات غرقاً فى نهر دجيل سنة ٧٧ هـ ٦٩٦ م

(٢) ابو محرز خلف بن حيان الاحمر . كان مولى بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى . وكان راوية علامة ، شاعراً بليغاً يصنع الشعر وينسبه الى العرب ، فيشبه كلامه كلامهم ، وكان يذهب مذهب الأصمعى فى الرواية ، حتى قيل انه معلم الاصمعى ، وهما اللذان فتقا المعانى ، وأوضحا المسالك ، وبينا المعالم ، ولم يكن لهما فى علم الشعر نظير . ثم نسك فى أواخر أيامه وترك الشعر والكلام فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه بعد وفاة حماد الراوية ، لكنه فاق حمادا . ولما نسك خرج الى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التى أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة . مات سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م

له حنجرٌ رَحْبٌ وقَوْلٌ مُنَقَّحٌ وفَصْلُ خِطابٍ لَيْسَ فيهِ تَشادُقُ
إذا كانَ صَوْتُ المَرْءِ خَلْفَ لَهاتِهِ وأَنْحى بأَشْداقٍ لهُنَّ شَقاشِقُ
وقَبْقَبَ يَحْكِي مُقْرَماً في هِبابِهِ فلَيْسَ بمَسْبُوقٍ ولا هُوَ سابِقُ

وقال الفرزدق : شَقاشِقُ بينَ أشْداقٍ وهامِ

وأنشد خلف :

وما في يَدَيْهِ غيرُ شِدْقٍ يُمِيلُهُ وشِقْشِقَةٍ خَرْساءَ ليسَ لَها تَعْبُ
متى رامَ قَوْلاً خالَفَتْهُ سَجِيَّةٌ وضِرْسٌ كَقَعْبِ القِينِ ثُلِّمَهُ الشَّعْبُ

وأنشد أبو عمرو بن [العلاء] :

وجاءَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشُ البِطاحِ هِيَ العُصَبُ الأَوَلُ الدَّاخِلَهْ
يَقودُهُمُ الفِيلُ والزَّنْدَبِيلُ وذُو الضِّرْسِ والشَّفَةِ المائِلَهْ

والفيل والزندبيل : أبان والحكم ابنا عبد الملك بن بشر بن مروان . وذو الضرس وذو الشفة المائلة : هو خالد بن سلمة المخزومى الخطيب . يعنى دخولهم على ابن هبيرة. والزندبيل : الانثى من الفيلة فيما ذكر أبو اليقظان نجيح بن حفص . وقال غيره: هو الذكر . فلم يقفوا من ذلك على شيء .

وقال الشاعر فى خالد بن سلمة المخزومى الخطيب :

فما كانَ قائلُهُمْ دَغْفَلٌ ولا الحَيْقُطانُ ولا ذو الشَّفَهْ

قوله : دَغفل ، يريد دغفل بن يزيد بن حنظلة الخطيب الناسب. والحيقطان : عبد أسود ، وكان خطيباً لايجارى

وأنشد أصحابنا :

وقافِيَةٍ لَجْلَجْتُها فَرَدَدْتُها لِذِي الضِّرْسِ لو أَرْسَلْتُها قَطَرَتْ دَما

وقال الفرزدق : أنا عند الناس أشعر العرب ، ولربما كان نزع ضرس أيسر على من أن أقول بيت شعر .

وأنشدنا منيع :

فَجِئْتُ وَوَهْبٌ كَالْحَلاةِ تَضُمُّهَا ... إِلَى الشِّدْقِ أَنْيَابٌ لَهُنَّ صَرِيفُ

فقعقعتُ لَحْيَيْ خالِدٍ واهْتَضَمْتُهُ ... بِحُجَّةِ خَصْمٍ بِالْخصومِ عَنِيفُ

أبو يَعقوب الثَّقفى عن عبد الملك بن عُمير قال : سئل الحارث بن أبى ربيعة عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ؟ فقال : كم كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم بكتاب الله ، والفقه فى السنة ، والهجرة الى الله و رسوله ، والبسطة فى العشيرة ، والنجدة فى الحرب ، والبذل للماعون . قال الاخر :

ولم تُفْنِى فَهًّا ولم تلْفِ حُجَّتى ... مُلَجلَجَةً أَبْغِى لَها مَنْ يُقِيمُهَا

ولا بِتُّ أُزْجِيها قَضِيباً وتَلْتَوِى ... أُراوِغُها طَوْراً وطَوْراً أُضِيمُها

وأنشدنى أبو الرديني العكلى :

فَتًى كانَ يَعْلُو مَفْرِقَ الْحَقِّ قَوْلُهُ ... إِذا الْخطباءُ الصِّيدُ عَضَّلَ قِيلُهَا

وقال الخُزيمى (١) فى تشادق على بن الهيثم (٢) :

(١) الخزيمى : هو اسحق بن حسان ، ويكنى أبا يعقوب ، أصله من فارس ، وهو مولى ابن خزيم الناعم من بنى مرة بن عوف . كان شاعراً حسن الديباج ، جيد المعانى . وكان متصلا بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وله فيه مدائح جياد ، ثم رثاه بعد موته فقيل له : يا أبا يعقوب ، مراثيك لال منصور بن زياد أحسن من مدائحك وأجود ! فقال : كنا نعمل على الرجاء ، ونحن الان نعمل على الوفاء ، و بينهما بون بعيد . وكان قد عمى فقال :

اذا ما ماتك بعضك فابك بعضا ... فان البعض من بعض قريب

يعنينى الطبيب شفاء عينى ... وهل غير الاله لها طبيب ؟

وقال فى معنى الغيرة والصيانة ، وهو كلام جيد :

ما أحسن الغيرة فى وقتها ... وأقبح الغيرة فى كل حين

من لم يزل متهما عرسه ... مناصبا فيها لريب الظنون

أوشك أن يغربها بالذى ... يخاف أن يبرزها للعيون

حسبك من تحصينها وضعها ... منك الى عرض صحيح ودين

لا تطلع منك على ريبة ... فيتبع المقرون حبل القرين

(٢) على بن الهيثم الكاتب الانبارى ، كان يعرف بجونقا ، وكان أديبا فاضلا

يا عَلِيَّ بْنَ هَيْثَمٍ يا سُماقا ... قد مَلأتَ الدُّنْيا عَلَيْنا بقاقا

خَلِّ لَحْيَيْكَ يَسْكُنانِ ولا تَضْـ ... ـرِبْ على تَغْلِبٍ بلَحْيَيْكَ طاقا

لا تُشادِقْ إذا تَكَلَّمْتَ واعلَمْ ... أنَّ لِلنّاسِ كُلِّهِمْ أشْدَاقا

وكان على بن الهيثم جوادا بليغ اللسان والقلم

قال لى أبو يعقوب الخزيمى : ما رأيت كثلاثة رجال يأكلون الناس أكلا حتى إذا رأوا ثلاثة رجال ذابوا كما يذوب الملح فى الماء ، أو الرصاص عند النار . كان هشام بن الكلبى علامة نسابة ، ورواية للمثالب عيابة ، فاذا رآى الهيثمَ ابن عدىّ ذاب كما يذوب الرصاص عند النار . وكان الهيثمُ بنُ عدى مُفَقِّعاً نيا صاحب تفقيع وتقعير ، و يستولى على كلام أهل المجلس لا يحفل بشاعر ولا بخطيب ، فاذا رأى موسى الضبى ذاب كما يذوب الرصاص عند النار . وكان عَوَانَة المغنى أحد الناس فى الرواية ، وفى الحكاية ، وفى صنعة الغناء ، وجودة الضرب ، وفى الاطراب وحسن الخلق ، فاذا رأى مخارقاً ذاب كما يذوب الرصاص عند النار

ثم رجع بنا القول إلى ذكر التشديق وبعد الصوت . قال أبو عبيدة : كان عروة ابن عتبة بن جعفر بن كلاب رديفا للملوك ورحالا اليهم ، وكان يقال له عروة الرحّال فكان يوم أقبل مع ابن الجون يريد بنى عامر ، فلما انتهى إلى واردات مع الصبح قال له عروة : انك قد عرفت طول صحبتى اك ، ونصيحتى اياك ، فأذن لى فأهتف بقومى هَتفةً . قال : نعم ، وثلاثا . فقام فنادى « ياصاحباه » ثلاث مرات ، قال : فسمعنا شيوخنا يزعمون أنه أسمع أهلَ الشعب فتلببوا للحرب وعَسَبُوا الرَّبايَا (١) ينظرون من أين يأتى القوم . قالوا : وتقول الروم : لولا ضجة أهل رُومية وأصواتهم لسمع الناس جميعا صوت وجوب القرص فى المغرب

وأعيبُ عندهم من دقة الصوت ، وضيق مخرجه ، وضعف قوته ، أن يعترض الخطيب البُهْرُ والارتعاش والرّعدة والعرَق . قال أبو الحسن : قال سُفيان بن عُيينة : تكلم صعصعة عند معاويه فعرق ، قال معاوية : بهرك القول ؟ فقال صعصعة :

وخطيبا مفوها ، صاحب تشادق وتقعير ، كثير الاستعمال لعويص اللغة . كتب في ديوان المأمون وغيره من الخلفاء وكان المأمون يتحفظ فى كلامه اذا كان حاضرا

(١) عسبوا الربايا : أكثروا الديدبانات والرقباء

إن الجياد نضاحة بالماء

والفرس إذا كان سريع العرق وكان هشا كان ذلك عيبا . وكذلك هو في الكثرة . واذا أبطأ ذلك وكان قليلا قيل: قد كبا ، وهو فرس كاب ، وذلك عيب أيضا

وأنشدنى ابنُ الأعرابى لابى مسمار العكلى فى شبيه بذلك قوله :

لله دَرُّ عامِرٍ إذا نَطَقْ ... في حَفْلِ إمْلاكٍ وفي تلك الخُلُقْ

ليسَ كقومٍ يُعْرَفونَ بالشَّدَقْ ... مِنْ خُطَبِ النّاسِ وَمِمَّا في الْوَرَقْ

يُلَفِّقُونَ القَوْلَ تَلْفِيقَ الْخُلَقْ ... مِنْ كُلِّ نَضّاحِ الذّفارى بالْعَرَقْ

إذا رَمَتْهُ الْخُطَباءُ بالْحَدَقْ

والذفارى هنا : يعنى بدَن الخطيب . والذفريان للبعير : وهما اللحمتان فى قفاه . وانما ذكر خطب الاملاك لانهم يذكرون أنه يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر ، ولذلك قال عُمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح . وقال العُمانى :

لاذَفِرٌ هَشٌّ ولا بِكابِ ... ولا بِلَجْلاجٍ ولا هَيّابِ

الهشُّ : الذى يجود بعرقه سريعاً ، وذلك عيب . والذفرُ : الكثير العرق . والكابى : الذى لا يكاد يعرق ، كالزند الكابى الذى لا يكاد يورى . فجعل له العُمانى حالا بين حالين إذا خطب ، وخبر أنه رابط الجأش ، معاود لتلك المقامات

وقال الكميتُ بن زيد ، وكان خطيباً : إن للخطبة صعداء وهى على ذى اللبّ أرمى

وقولهم : أرمى وأربَى سواء ، يقال : فلان قد أرمىَ على المائة وأربىَ . ولم أر الكميت أفصح عن هذا المعنى ولا تخلص الى خاصته ، وانما يجترئُ على الخطبة الغمرُ الجاهل الماضي الذى لا يثنيه شيء ، أو المطبوع الحاذق الواثق بغرارته واقتداره فالثقة تنفى عن قلبه كل خاطر يورث اللجلجة والنحنحة والانقطاع والبهر والعرق .

قال عُبيدُ الله بن زياد ، وكان خطيبا على لكنة كانت فيه : نعم الشيء الامارة لولا قعقعة البُرُدِ ، والتشدق للخطب . وقيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ؟ قال : وكيف لا يعجل على وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين ؟

يعنى خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من الامور . قال بعض الكلابيين .

وَإِذَا خَطَبْتَ عَلَى الرِّجَالِ فَلَا تَكُنْ خَطِلَ الْكَلَامِ تَقُولُهُ مُخْتَالَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ مِنَ السُّكُوتِ إِبَانَةً وَمِنَ التَّكَلُّمِ مَا يَكُونُ خَبَالَا

﴿ كلام بِشْر بنِ المُعْتَمِر (١) ﴾ حين مر بابرهيم بن جَبلة بن مخرَمة السَّكونى الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة . فوقف بِشرٌ ، فظن ابرهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة . فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحاً

ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرمُ جوهراً ، وأشرفُ حسباً ، وأحسن فى الاسماع ، وأحلى فى الصدور

---

(١) بشر بن المعتمر، يكنى أبا سهل، كان من وجوه أهل الكلام. ومن أفاضل علماء المعتزلة ، ومن أكابر بلغاء الدهر وأبينائه، وكان جميع معتزلة بغداد من مستجيبيه وكان به برص . وكان له ولع بأبى الهذيل العلاف كثير الوقوع فيه، ورميه بالنفاق. ومن أبلغ وأظرف ما قاله فيه قوله : لأن يكون أبو الهذيل لا يعلم وهو عند الناس يعلم أحب إليه من أن يعلم وهو عند الناس لا يعلم ، ولأن يكون من السفلة وهو عند الناس من العلية أحب اليه من أن يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة، ولأن يكون نبيل المنظر سخيف المخبر أحب إليه من أن يكون نبيل المخبر سخيف المنظر. وهو بالنفاق أشد عجباً منه بالاخلاص ، ولباطل مقبول أحب إليه من حق مدفوع

وهو رأس فرقة من فرق المعتزلة تنسب اليه يقال لها « البشرية » لها أزاء ومسائل أخذتها عنه وانفردت بها عن سائر الفرق . ولبشر أشعار كثيرة يحتج فيها على أصحاب المقالات . قال الجاحظ: أنه لم ير أحداً أقوى على المخمس والمزدوج مما قوى عليه بشر ، وانه كان فى ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحقى . ومن شعره :

إن كنت تعلم ما أقو ل وما تقول فأنت عالم
أو كنت تجهل ذا وذا ك فكن لاهل العلم لازم
أهل الرياسة من ينـ ـازعهم رياستهم فظالم
سهرت عيونهم وانـ ـت من الذى قاسوه حالم
لا تطلبن رياسة بالجهل أنت لها مخاصم
لولا مقامهم رأيـ ـت الدين مضطرب الدعائم

وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرّة من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه . وإياك والتوعّر ، فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك . ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويُهجّنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملابستهما ، وقضاء حقهما . وكن فى ثلاث منازل . فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقاً عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرُف بان يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بان يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة ، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى . فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على أن تُفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الالفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الاكفاء ، فانت البليغ التامّ »

قال بشرٌ : فلما قرأت على ابرهيم قال لى : أنا احوج الى هذا من هؤلاء الفتيان

قال أبو عثمان : أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ، فانهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعّراً وحشياً ، ولا ساقطاً سوقيا . واذا سمعتمونى أذكر العوام فانى لست أعنى الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعة ، والباعة ، ولست أعنى الاكراد فى الجبال ، وسكان الجزائر فى البحار ، ولست أعنى من الامم مثل البربر والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأمثال الزنج ؟ وانما الامم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب ، وفارس ، والهند ، والروم . والباقون همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الامم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على أن الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضا

ثم رجع بنا القول إلى بقية كلام بشر بن المعتمر ، والى ما ذكر من الاقسام .

قال بشرٌ :

« فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصر الى قرارها ، والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحلّ فى مركزها وفى نصابها ، ولم تصل بشكلها ، وكانت قلقةً في مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول فى غير اوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يُعبك بترك ذلك أحد . وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك بصيراً بما عليك او مالك ، عابك من انت أقل عيبا منه ، ورآى من هو دونك انه فوقك . فان ابتليت بان تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى اول وهلة ، وتعصّى عليك بعد إجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك ، او سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، او جريت من الصناعة على عِرق . فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول اهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك ، واخفها عليك ، فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه الا و بينكما نسب ، والشيء لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات ، لان النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع المحبة والشهوة . فهكذا هذا »

وقال : ينبغى للمتكلم ان يعرف اقدار المعانى ، ويوازن بينها و بين اقدار المستمعين ، و بين اقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعانى ، ويقسم اقدار المعانى على اقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات . فان كان الخطيب متكلما تجنب الفاظ المتكلمين ، كما انه ان عبر عن شيء من صناعة الكلام : واصفا ، او مجيبا ، أو سائلا ، كان اولى الالفاظ به الفاظ المتكلمين ، اذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، والى تلك الالفاظ أميل ، واليها أحن ، وبها أشغف ، ولان كبار المتكلمين و رؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وابلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم ، فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع . ولذلك قالوا : العَرَض ، والجوهر ، وأيس ، وليس . وفرقوا بين البطلان والتلاشى . وذكروا الهَذِيّة والهُوية والماهية . واشباه ذلك ، وكما وضع الخليل بن

احمدلاوزان القصيد وقصار الارجاز ألفابا لم تكن العرب تتعارف تلك الاعاريض بتلك الالقاب ، وتلك الاوزان بتلك الاسماء ، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل، واشباه ذلك ، وكما ذكر الاوتادَ والاسباب والخرم والزِّحاف . وقد ذكرت العرب فى أشعارها السنادَ والاقواءَ والاكفاء ، ولم اسمع الايطاء . وقالوا في القصيد والرجز والسجع والخطب . وذكروا حروف الرَّوىِّ والقوافى. وقالوا : هذا بيت ، وهذا مِصراع . وقد قال جندَل الطهوى حين مدح شعره :

لم اقْوِفيهنَّ ولم أُسانِدِ

وقال ذُو الرُّمَّة :

وشِعْرٍ قد أرِقْتُ لهُ غَرِيبٍ أُجانِبُهُ المسانِدَ والمحالا

وقل أبو حِزَامٍ العُكْلىُّ :

بُيُوتاً نَصَبْنا لتَقْوِيمِها جُذُولَ الرَّبِيئِينَ في المَرْبَأَهْ (١)

بيوتاً على الهُدَى لها سَجْحَةٌ بغير السِّنادِ ولا المُكْفَأَهْ (٢)

وكماسمى النحويون فذكروا الحال والظرف وما أشبه ذلك ، لانهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو . وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء وجعلوها علامات للتفاهم

قالوا : وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد ، أو يوم المماطين أو على منبر جماعة ، أو فى سُدة دار الخلافة ، أو فى يوم جمع وحفل ، إما فى اصلاح بين العشائر ، واحتمال دماء القبائل ، واستلال تلك الضغائن والسخائم ، فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشان رفيع المكان : ثم ان الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم لاشاهم فتلاشوا . ولولا أن المتكلم افتقر الى أن يلفظ بالتلاشى لكان ينبغى أن يؤخذ فوق يده . وخطب آخر فى وسط دار الخلافة فقال فى خطبته : واخرجه الله من باب الليسيَّة فادخله فى باب الايسيه (٣)

---

(١) جذول الربيئين : استطلاع المراقبين . فى المربأة : فى المرقب (٢) سجحة يماثل . السناد والاكفاء : من عيوب القافية (٣) الليسية : النفى . والايسية الاثبات . وذلك من اصطلاح المتكلمين

وقال مرة أخرى فى خطبة له : هذا فريق ما بين السارّ والضار والدّفاع . وقال مرة أخرى : فدل ساتره على غامره ، ودل غامره على منحله . فكاد ابرهيم ابن السندى يطير شفقا ، ويتقد غيظا . هذا وابرهيم من المتكلمين والخطيب لم يكن من المتكلمين

وإنما جازت هذه الالفاظ فى صناعة الكلام حين عجزت الاسماء عن اتساع المعانى . وقد تحسن أيضا ألفاظ المتكلمين فى مثل شعر ابى نواس ، وفى كل ماقالوه على جهة التظرف والتمالح . كقول أبى نواس:

وذاتِ خَدٍّ مُوَرَّدْ ... قُوهِيَّةِ المُتَجَرَّدْ (١)

تَأَمَّلُ العينُ منهـا ... مَحاسِناً ليسَ تَنْفَـدْ

فَبَعْضُها قد «تَناهى» ... وبعضُها «يَتَوَلَّدْ»

والحُسْنُ فى كلِّ عُضْوٍ ... منهـا مُعادٌ مُرَدَّدْ

وكقوله .

ياعاقِدَ القَلْبِ مِنّى ... هَلاّ تَذَكَّرْتَ حَلاّ

تَرَكْتَ قلبى قَليلاً ... مِنَ القَليلِ أقَلاّ

يَكادُ «لا يَتَجَزّا» ... أقَلُّ فى اللَّفْظِ مِنْ: لا

وقد يتلمح الاعرابى بان يدخل فى شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العمانى(٢ للرشيد فى قصيدته التى مدحه فيها :

---

(١) قوهية المتجرد . بيضاء الجسم بضته حتى تكاد تشبه المقانع القوهية المنسوبة الى قوهستان . وهذه الابيات فى وصف جنان ، وفيها بعض خلاف عما فى الديوان

(٢) العُمانى : هو محمد بن ذؤيب الحنظلى الدارمى الفقيمى . شاعر بصرى ، قيل أنه لم يرُ عمان لاهو ولا أبوه ، وانما لقب « العمانى » لصفرة لونه . وكان شاعراً راجزاً من متوسطى شعراء الدولة العباسية ، ولم يكن من طبقة معاصرية أمثال أشجع ومسلم ومروان بن أبى حفصة ، ولكنه كان لطيفا داهيا مقبولا ، وكان الرشيد يستظرفه ويهش له فأفاد من ذلك مالا جليلا

مَنْ يَلْقَهُ مِنْ بَطَلٍ مُسَرَنْدِ فِي زَغْفَةٍ مُحْكَمَةٍ بِالسَّرْدِ
يَجُولُ بَيْنَ رَأْسِهِ و « الْكَرْدِ »

يعنى العنق . ويقول فيه أيضا :

لَمَّا هَوَى بَيْنَ غِيَاضِ الأُسْدِ وصارَ فِي كَفِّ الْهِزَبْرِ الوَرْدِ
آلى يَذُوقُ الدَّهْرَ « آبَ سَرْدِ »

وكقول الآخر :

وَوَالَهَنِي وَقْعُ الأَسِنَّةِ والْقَنَا و « كافر كوبات » لَهَا عِجَرٌ قُفْدُ
بِأَيْدِي رِجَالٍ ما كَلامِي كَلامُهُمْ يَسُومُونَنِي « مُرْدًا » وماأنا « والمَرْدُ »

ومثل هذا موجود فى شعر العُذافر الكندى وغيره . ويجوز أيضا أن يكون الشعر مثل شعر الحروشاذ ، وأسود بن أبى كريمة ، كما قال يزيد بن ربيعة بن مُفرغ (١)

آب آسْتُ نَبِيذَ آسْتْ عُصاراتِ زَبِيبَ آسْتْ
سُمَيَّةُ رُوسبيد آسْتْ

وقال أسود بن أبى كريمة :

لَزِمَ الغُرَّامُ تَوْبِى بكْرَةً فِي يَوْمِ سَبْت
فتمايَلْتُ عَلَيْهِمْ ميْلَ زَنْكِيٍّ بِمَسْت
قَدْحَسا الدَّاذِيَّ صِرْفا أو عقاراً بابخست

(١) يزيد بن مفرغ الحميرى : كان شاعراً مجيدا غزلا ، له أشعار كثيرة فى هجاء يزيد ابن معاوية وفى آل زياد ، لأنه صحب عباد بن زياد لما ولى خراسان واشتغل عنه عباد بحروبه فذمه أقبح ذم وهجاه أوجع هجاء ، وسلقه بلسانه فحبسه وكان له معه ومع أخيه عبيد الله بن زياد خطوب . وله فى سعيد بن عثمان وغيره ممن واسوه فى نكباته مدائح جياد

نم كفنم ذو زياد ويحكم ان خر كفت
إنَّ جِلْدِى دَبَغَتْهُ أهلُ صَنْعاءَ بحفت
وأبو عمْرَةَ عِنْدِى ان كور يذنمست
جالِس اندر مكناد ايا عمد بنهشت

وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا ساقطاً سوقيا ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا ، الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس، كما يفهم السوقى رطانة السوقى

وكلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات . فمن الكلام : الجزلُ ، والسخيفُ ، والمليحُ ، والحسنُ ، والقبيحُ ، والسميحُ ، والخفيفُ ، والثقيلُ ، وكله عربى ، وبكلٍ قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا . قال زعم زاعم أنه لم يكن فى كلامهم تفاضل ، ولا بينهم فى ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العَيِيَّ ، والبَكِيَّ ، والحَصِرَ ، والمِفْحَمَ ، والخَطِلَ ، والمسهبَ والمتشدق ، والمتفهق ، والمهماز ، والثرثار ، والمكثار ، والهماز ؟ ولم ذكروا الهُجر والهذر والهذيان والتخليط ؟ وقالوا : رجل تَلقاعة وتَلهاعة ، وفلان يتلهيع فى خطبته . وقالوا : فلان يخطىء فى جوابه ، ويحيل فى كلامه ، ويناقض فى خبره . ولولا أن هذه الامور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض والبعض الاخر بهذه الاسماء

وأنا أقول انه ليس فى الأرض كلام هو أمتع ، ولا أنفع ، ولا آنق ، ولا ألذ فى الاسماع ، ولا أشدّ اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان ، من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء . وقد أصاب القوم فى عامة ما وصفوا ، الا أنى أزعم أن سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعانى ، وقد يحتاج الى السخيف فى بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم ، ومن الالفاظ الشريفة الكريمة المعانى . كما أن النادرة الباردة جدًّا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدًّا . وانما الكرب الذى يخيم (١) على القلوب

(١) فى نسخة : يحتم . وليس هذا مقام تحتيم ، والصحيح يخيم . كما يقتضيه السياق كما أثبتناه ها هنا

ويأخذ بالأنفاس: النادرةُ الفاترة التى لا هى حارةٌ ولا هى باردةٌ . وكذلك الشعر الوسط ، والغناء الوسط . وانما الشأن فى الحارّ جدًّا والبارد جدًّا

وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مغنّ وسط ، وأبغض من ظريف وسط

ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الاعراب فاياك وأن تحكيها الا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ؟ فانك ان غيرتها بان تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وأن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير لها لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ويُذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها

ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب ، والتشديق والتمطيط ، والجهورة والتفخيم . وأقبح من ذلك لحن الاعاريب النازلين على طرق السابلة و بقرب مجامع الاسواق . ولاهل المدينة السنة دَلقةٌ والفاظ حسنةٌ ، وعبارة جيدة . واللحن فى عوامّهم فاش ، وعلى من لم ينظر فى النحو منهم غالب

واللحن من الجوارى الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر ، أيسر . وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف . ولكن اذا كان اللحن سجية سكان البلد . وكما يستملحون اللثغاء اذا كانت حديثة السن ، ومقدودة مجدولة ، فاذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح ، وربما كان اسم الجارية غُليم وصُبية وما اشبه ذلك ، فاذا صارت كهلة جزلة ، وعجوزاً شهلة ، وحملت اللحم ، وتراكم عليها الشحم ، وصار بنوها رجالا ، وبناتها نساء ، فما أقبح حينئذ أن يقال لها : ياغليم كيف أصبحت ؟ ويا صبية كيف أمسيت ؟ ولأمرما كنّت العرب البنات فقالوا : فعلت أم الفضل ، وقالت أم عمرو ، وذهبت ام حكيم ، نعم حتى دعاهم ذلك الى التقدم فى تلك الكنى

وقد فسرنا ذلك كله فى « كتاب الاسماء والكنى والالقاب والانباز »

وقد قال مالك بن أسماء فى استملاح اللحن من بعض نسائه :

أمُعْطَىَّ مِنّى على بَصَرى لِلْـ ـحُبِّ ، أمْ أنتِ أكْملُ النّاسِ حُسْنا؟

وحَـديثٍ ألَذُّهُ هو مِمَّـا ... يَنْعَتُ النّـاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنَا

مَنْطِقٌ صَائِبٌ وتَلْحَنُ أحْيَـا ... نًا وأحْـلَى الحديثِ ما كانَ لَحْنا(١)

وهم يمدحون الحذق والرفق والتخلص الى حبات القلوب ، والى إصابة عيون المعانى . ويقولون : أصاب الهدف ، اذا أصاب الحق فى الجملة . ويقولون قَرْطَسَ فلان ، وأصاب القرطاس ، اذا كان أجود اصابة من الأول . فاذا قالوا : رمى فاصاب الغرة ، وأصابَ عين القِرطاس ؟ فهو الذى ليس فوقه أحد . ومن ذلك قولهم : فلان يفل المحز ويصيب المفصل ، ويضع الهناء مواضع النقب . وقال زُرارةُ بنُ جزء حين أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتكلم عنده ورفع حاجته اليه :

أتَيْتُ أبا حَفْصٍ ولا يَسْتَطِيعُهُ ... مِنَ النَّاسِ إلاّ كالِسِّنانِ طَرِيرُ

فَوَفَّقَنِى الرَّحْمنُ لَمّـا لَقِيتُهُ ... ولِلْبابِ من دُونِ الخُصومِ صَرِيرُ

قُرُومٌ غُيارَى عِنْدَ بابٍ مُمَنَّعٍ ... تُنازِعُ مَلْكاً يَهْتَدِي ويَجُورُ

فَقُلْتُ لهُ قَوْلاً أصَابَ فُؤادَهُ ... وبَعْضُ كلامِ القائِلِينَ غُرُورُ

وفى شبيه ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان حيث يقول :

رِجالٌ أصِحَّاءُ الجُلُودِ مِنَ الخَنَا ... وألْسِنَةٌ مَعْرُوفَةٌ أيْنَ تَذْهَبُ

---

(١) روى ابو الفرج الاصبهانى بسنده عن على بن يحيى المنجم أنه قال : قلت للجاحظ : إنى قرأت فى فصل من كتابك « البيان والتبيين : وإنما يستحسن من النساء اللحن فى الكلام » واستشهدت ببيتى مالك بن أسماء ؟ قال : هو كذلك . فقلت : أما سمعت بخبر هند ابنة اسماء بن خارجة مع الحجاج حين لحنت فى كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت ببيتى أخيها فقال لها : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة تلحن بالكلام الى غير الظاهر بالمعنى لتستر معناه وتورى عنه وتفهمه من أرادت بالتعريض ، كما قال الله عز وجل ولتعرفنهم فى لحن القول . ولم يرد الخطأ من الكلام والخطأ لا يستحسن من أحد ؟ ؟ ؟

فوجم الجاحظ ساعة ثم قال : لو سقط الىّ هذا الخبر أولا لما قلت ما تقدم . فقلت له : فأصلحه . فقال : الآن وقد سار به الكتاب فى الآفاق ؟ .

وفى اصابة فص الشيء وعينه ، يقول ذو الرُّمة فى مديح بلال بن أبى بردة الاشعرى :

تُناخِي عِنْدَ خَيْرِ قَنًى يَمَانٍ ... إذا النَّكْباءُ عارَضَتِ الشَّمالا
وَخَيْرِهِمِ مآثِرَ أهْلِ بَيْتٍ ... وأكْرَمِهِمْ وَإنْ كَرُمُوا فِعالا
وأبْعَدِهِمْ مَسافَةَ غَوْرِ عَقْلٍ ... إذا ما الأمْرُ فى الشُّبُهاتِ عالا
ولَبَّسَ بينَ أقْوامٍ فَكُلٌّ ... أعَدَّ لَهُ الشَّغازِبَ والمحالا (١)
وكُلُّهُمُ أَلَدُّ لهُ كِظاظٌ ... أعَدَّ لِكُلِّ حالِ القَوْمِ حالا (٢)
فَصَلْتَ بِحِكْمَةٍ فأصَبْتَ مِنها ... فُصُوصَ الحَقِّ فانْفَصَلَ انْفِصالا

وكان أبو سعيد الراى، وهو شرشير المدنى، يعيب أبا حنيفة (٣) فقال الشاعر :

عِنْدِى مَسائِلُ لاشَرْشِيرُ يُحْسِنُهَا ... عِنْدَ السُّؤالِ ولا أصْحابُ شَرْشِيرِ
ولا يُصِيبُ فُصُوصَ الحَقِّ تَعْلَمُهُ ... إلاّ حَنِيفِيَّةٌ كُوفِيَّةُ الدُّورِ

ومما قالوا فى الايجاز و بلوغ المعانى بالالفاظ اليسيرة ، قال ثابت بن قطنة :

مازِلْتُ بَعْدَكَ فِي هَمٍّ يَجِيشُ بِهِ ... صَدْرِي وفي نَصَبٍ قد كادَ يُبْلِينِي
إنِّى تَذَكَّرْتُ قَتْلَى لَوْ شَهِدْتُهُمُ ... فى غَمْرَةِ الْمَوْتِ لَمْ يُصْلَوْا بِهادُونِى
لاأُكْثِرُ الْقَوْلَ فِيما يَهْضِبونَ بِهِ ... مِنَ الْكَلامِ قَلِيلٌ مِنْهُ يَكْفِينِي (٤)

وقال رجل من طيء ومدح كلام رجل فقال : هذا كلام يكتفى بأولاه، و يشتفى بآخراه. وقال أبو وجزة السعدى ، من سعد بن بكر، يصف كلام رجل :

يَكْفِي قَلِيلُ كَلامِهِ وكَثِيرُهُ ... ثَبْتٌ إذا طالَ النِّضالُ مُصِيبُ

---

(١) الشغازب : المصارع الشغزبية وهى حركة من حركات المصارعين . وهى أن يعقل المصارع رجله برجل خصمه فيصرعه. والمحال: الاحتيال (٢) له كظاظ : أى صاحب تجارب ومراس فى الحرب (٣) ابوحنيفة هو الامام الاعظم ابوحنيفة النعمان صاحب المذهب وهو اشهر من أن يعرف توفى سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧ م (٤) يهضبون : يسحون بالكلام سحا

ومن كلامهم الموجز فى أشعارهم قول العكلى فى صفة قوس :

فى كَفِّهِ مُعْطِيَةٌ مَنُوعُ مُوثَقَةٌ صَابِرَةٌ جَزُوعُ

وقال الآخر ووصف سهم رام أصاب حمارا فقال : حَتَّى نَجَا مِنْ جَوفِهِ وما نَجا

وقال الاخر وهو يصف ذئبا :

أَطْلَسُ يُخْفِى شَخْصَهُ غُبارُهُ فِي شِدْقِهِ شَفْرَتُهُ ونارُهُ

وَهُوَ الْخَبِيثُ عَيْنُهُ فِرَارُهُ بَهْمُ بَنِى مُحارِبٍ مُزْدارُهُ

ووصف الآخر ناقة فقال : خَرْقَاءُ إلا أنها صَنَاعُ

وقال الآخر ووصف سهما صارداً (١)

أَلْقَى على مَقْطُوحِها مَقْطُوحا غادَرَ داءً ونَجا صَحِيحا

المقطوح الاول للقوس ، وهو العريض ، وهو ها هنا موضع مقبض القوس . والمقطوح الثانى السهم العريض . يعنى أنه ألقى على مقبض القوس سهما عريضا

وقال الاخر :

إِنكَ يا ابْنَ جَعْفَرٍ لا تُفْلِحُ اللَّيْلُ أَخْفَى والنَّهارُ أَفْضَحُ

وقالوا فى المثل: الليل أخفى للويل

وقال رؤبة يصف حمارا:

حَشْرَجَ فِي الْجَوْفِ سَحِيلاً أَوْشَهَقْ حتى يُقَالَ ناهِقٌ وما نَهَقْ

الحشرجة: صوت الصدر. والسحيل: صوت الحمار اذا مده. والشهيق: أن يقطع الصوت

وقال بعض ولد العباس بن مرداس السلمى فى فرس أبى الاعور السلمى :

جاءَ كَلَمْحِ البَرْقِ جاشَ ناظِرُهْ يَسْبَحُ أُولاهُ ويَطْفُو آخِرُهْ

(١) فى نسخة صادرا وهو خطأ، والصواب صارداً كما اثبتناه

فَمَا يَمَسُّ الأَرْضَ مِنْهُ حافِرُهْ

قوله : جاش ناظره ، أى جاش بمائه . وناظر البرق سحابه . يسبح يعنى يمد ضبعية ، فاذا مدها علا كفله

وقال الاخر : إِنْ سَرَّكَ الأَهْوَنَ فابْدَأْ بالأَشَدّْ

وقال العجّاج :

يُمْكِنُ السَّيْفَ إِذا الرُّمْحُ انْأَطَرْ مِنْ هَامَةِ اللَّيْثِ إِذا اللَّيْثُ هَبَرْ (١)

كَجَمَلِ الْبَحْرِ إِذا خاضَ جَسَرْ غَوارِبَ الْيَمِّ إِذا الْيَمُّ هَدَرْ

حتى يُقالَ جاسِرٌ وما جَسَرْ

اليمّ : معظم الماء . وغوارب اليم مُعظمة . جسر : قطع . ومنه قيل للجسر جسرٌ لان الناس يقطعون عليه . وقوله حتى يقال جاسر وما جسر ، اى قطع الامر وهو بعد فيه لما يرون من مضائه فيه وقدرته عليه

وقال الآخر :

يا دارُ قد غَيَّرَها بِلاها كأَنَّما بِقَلَمٍ مَحاها

أَخْرَبَها عُمْرانُ مَنْ بَناها وَكَرُّ مُمْسَاهَا على مَغْناها

وطَفِقَتْ سَحابَةٌ تَغْشاها تَبْكِي على عِراصِها عَيْناها

قوله : أخربها عمران من بناها ، يقول : عمرها بالخراب . وأصل العمران مأخوذ من العمر وهو البقاء ، فاذا بقى الرجل فى داره فقد عمرها . فيقول: ان مدة بقائه فيها أبلت منها، لان الايام مؤثرة فى الاشياء بالنقص والبلاء . فلما بقى الخراب بها وقام مقام العُمران فى غيرها سمى بالعمران

وقال غيره

يا عَجَّلَ الرَّحْمٰنُ بالْعَذَابِ لِعامِرَاتِ الْبَيْتِ بالْخَرابِ

يعنى الفأر . يقول : هذا عمرانها ، كما يقول الرجل : ما نرى من خيرك ورفدك

(١) إنأطر : إنثنى والتوى فى يده

الا ما يبلغنا من خطيك علينا وفتك فى أعضادنا ؟ وقال الله عز وجل « هذا نزلهم يومَ الدين » والعذاب لا يكون نزلا، ولكنه لما أقام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمى باسمه

وقال الآخر :

فَقُلْتُ أطْعِمِنى عُمَيرُ تَمْرا فكانَ تَمرِى كَهرَةً وزَبْرا (١)

والتمر لا يكون كهرة وزبرا ، ولكنه على ذا : وقال الله عز وجل « ولهم رزقهم فيها بُكرة وعَشيا » وليس فى الجنة بكرة ولا عشى، ولكن على مقدار البُكر والعشيات . وعلى هذا قول الله عز وجل « وقال الذين فى النار لخَزَنة جهنم » والخزنة الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شىء فيحفظ ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به

قوله مساها يعنى مساءها . ومغناها : موضعها الذى أقيم فيه . والمغانى : المنازل التى كان بها أهلوها ، وطفقت : يعنى ظلت . تبكى على عراصها عيناها : يقال لكل جوبة منفتقة ليس فيها بناء « عرصه » . عيناها هاهنا السحاب ، وجعل المطر بكاء من السحاب، على طريق الاستعارة ، وتسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه

وقال أبو عمرو بن العلاء : (٢) اجتمع ثلاثة من الرّواة فقال لهم قائل : أى نصف بيت شعر أحكم وأوجز ؟ فقال أحدهم : قول حُمَيْدِ بنِ ثَوْرٍ الهِلالِىِّ :

وَحَسبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتَسلَما

ولعل حُمَيْدًا أخذه عن النَّمِرِ بنِ تَوْلَبٍ ، قال النمر :

---

(١) الكهر : الزجر والردع. والزبر : الرمى بما فى اليد من حجر ونحوه

(٢) ابو عمرو بن العلاء : هو امام أهل البصرة فى النحو واللغة والقراءآت . وهو أحد القراء السبعة المشهورين . أخذ عن جماعة من التابعين وقرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد ، وروى عن أنس بن مالك وأبى صالح السمان وعطاء وغيرهم مدحه الفرزدق ووثقه يحيى بن معين . وكان صدوقا ثقة حجة . قال ابو عبيدة : ابو عمرو أعلم الناس بالقراءآت والعربية وأيام العرب والشعر . وكان من سادات العرب ووجوههم . قرأ عليه اليزيدى وعبدالله بن المبارك وغيرهما خلق كثير. وأخذ عنه الأدب ابو عبيدة والاصمعى وغيرهما مات سنة ١٥٩ هـ ٧٧٥ م

يُحِبُّ الفتَى طُولَ السَّلامةِ والغِنَى فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلامةِ يَفعَلُ؟

وقال أَبُو العَتَاهِيَة : أَسرَعَ في نَقْصِ أَمرٍ تَمَامُهُ

ذهب إلى كلام الأول : كلُّ ما أقام شَخص ، وكلّ ما ازداد نَقص، ولو كان الناس يُميتهم الداء إذاً لأعاشهم الدواء .

وقال الثانى من الرواة الثلاثة : بل قول أبى خراش الهذلى :(١)

نُوَكِّلُ بالأَدْنَى وإِنْ جَلَّ ما يَمْضِى

وقال الثالث: بل قول أبى ذُؤَيب الهذلى :

وإِذا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فقال قائل : هذا من مفاخر هُذَيل أن يكون ثلاثة من الرواة لم يصيبوا فى جميع أشعار العرب إلا ثلاثة أنصاف ، إثنان منها لِهُذَيل وحدها . فقيل لهذا القائل: إنما كان الشرط أن يأتوا بثلاثة أنصاف مستغنيات بأنفسها . والنصف الذى لأبى ذؤيب لا يستغنى بنفسه ، ولا يفهم السامع معنى هذا النصف حتى يكون موصولا بالنصف الاول ، لانك إذا أنشدت رجلا لم يسمع بالنصف الاول وسمع « وإذا تُرد إلى قليل تقنعُ » قال : ومن هذه التى تُرد الى قليل فتقنع ؟ وليس المضمن كالمطلق . وليس هذا النصف مما رواه هذا العالم، وإنما الرواية قوله :

والدّهرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

---

(١) ابو خراش الهذلى : هو خويلد بن مرة من شعراء هذيل المذكورين ، وفصائحهم المعروفين، أدرك الجاهلية والاسلام فأسلم . وكان من العدائين الذين يسبقون الخيل على أرجلهم . نهشته أفعى فمات في خلافة عمر بن الخطاب . وهذا الشطر من قصيدة يرثى بها أخاه عروة ويذكر خلاص ولده خراش :

حمدت الهَوَى بعد عروة إذ نجا خراش وبعض الشر أهون من بعض
فوالله لا أنسى قتيلا رزئته بجانب قوسى ماحييت على الارض
بلى إنها تعفو الكلام وإنما توكل بالأدنى وإن جل مايمضى
ولم أدر من ألقى عليه رداءه ولكنه قد سل عن ماجد محض

ومما مدحوا به الايجاز ، والكلام الذى كالوحى والاشارة ، قول أبى ذؤاد بن جرير الايادى :

يَرْمُونَ بِالخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيَ الْمَلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

فمدح كما ترى الاطالة فى موضعها ، والحذف فى موضعه

ومما يدل على شغفهم وكلفهم وشدة حبهم للفهم والافهام قول الاسدى فى صفة كلام رجل نعت له موضعا من تلك السباسب التى لا أمارة فيها باقل اللفظ وأوجزه ، فوصف إيجاز الناعت وسرعة فهم المنعوت له فقال :

بِضَرْبَةِ نَعْتٍ لَمْ تُعَدْ غَيْرَ أَنَّنِي عَقُولٌ لِأَوْصَافِ الرِّجَالِ ذَكُورُهَا

وهو كقولهم لابن عباس : أنى لك هذا العلم ؟ قال : قلب عقول ، ولسان سؤول وقد قال الراجز :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ جُبْتُهُمَا بِالنَّعْتِ لَا بِالنَّعْتَيْنِ

وقالوا فى التحذير من ميسم الشعر ، ومن شدة وقع اللسان ، ومن بقاء أثره على الممدوح والمهجوّ . قال امرؤ القيس بن حُجْر :

وَلَوْ عَنْ نَثًا غَيْرِهِ جَاءَنِي وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ (١)

وقال طَرَفَةُ :

بِحُسَامِ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْـ كَلِمُ الأَصِيلُ كَأَرْغَبِ الْكَلْمِ (٢)

قال وأنشدنى محمد بن زياد :

لَحَوْتُ شَمَّاساً كَمَا تُلْحَى الْعِصِيّ سَبًّا لَوْ أَنَّ السَّبَّ يُدْمِي لَدَمِي (٣)

مِنْ نَفَرٍ كُلُّهُمُ نِكْسٌ دَنِيّ مَحَامِدُ الرَّذْلِ مَشَائِيمُ السَّرِيّ (٤)

---

(١) النثا : الحديث عن الغير . (٢) كارغب الكلم : أى أن من الكلام ما يجرح جرحا هو أوسع من جرح السيف أو السنان

(٣) لحوته : قشرته ، أى كشفت المستور منه يسبى له (٤) نكس دنى : نذل لا خير فيه . وهو موضع حمد الاراذل ، ومهبط لعنات السراة والأماثل

مَخَابِطُ الْحِكْمِ مَوَادِيعُ الْمُطَى مَتَارِكُ الرَّفِيقِ بِالْخَرْقِ النَّطِيِّ

وانشد محمد بن زياد :

تَمَنَّى أبو العَفَّاقِ عِنْدِى هَجْمَةً تُسَهِّلُ مأْوَى لَيْلِهَا بِالْكَلَاكِلِ
ولاعَقْلَ عِنْدِى غَيْرُ طَعْنٍ نوافِذٍ وضَرْبٍ كَأَشْدَاقِ الفِصَالِ الْهَوَادِلِ
وَسَبِّ يَوَدُّ الْمَرْءُ لَوْ مَاتَ قَبْلَهُ كَصَدْعِ الصَّفَا فَلَّقْتُهُ بِالْمَعَاوِلِ

الهَجْمة: القطعة من النوق فيها فحل . والكلكل : الصدر . والفصال : جمع فصيل ، والفصيل ولد الناقة إذا فصل عنها . والهوادل : العظام المشافر . والعقل ها هنا الدية . والعاقلة: أهل القاتل الادنون والابعدون . والصفا: جمع صفاة وهي الصخرة وقال طرفة :

رَأَيْتُ الْقَوَافِي يَتَّلِجْنَ مَوَالِجًا تَضَايَقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الإِبَرْ

وقال الأخطل (١)

حَتَّى أَقَرُّوا وهُمْ مِنِّى عَلَى مَضَضٍ والقَوْلُ يَنْفُذُ مالا تَنْفُذُ الإِبَرُ

وقال العُمانى:

إِذْ هُنَّ فِي الرَّيْطِ وفي الْمَوَادِعِ تَرْمِى الْيَهِنَّ كَبِذْرِ الزَّارِعِ

الرَّيط : الثياب واحدها ريطة ، والريطة كل مُلاءة لم تكن لفقين . والحلة لا تكون إلا ثوبين . والموادع : الثياب التى تصون غيرها ، واحدها ميدعة . وقالوا : الحرب أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى . وكتب نصر ابن سيار الى ابن هُبَيْرَةَ أيام تحرك أمير السواد بخراسان :

---

(١) الأخطل : هو غياث بن غوث ، يكنى أبا مالك ، شاعر فحل من أكابر شعراء الاسلام ينازع جريراً والفرزدق التقدم والتفوق ، وقد فضله كثير فى العلماء بالشعر عليهما . وكان نصرانيا هاجى جريرا والفرزدق وغيرهما من الشعراء . وهو شاعر بنى أمية بلا منازع ، وهذا من قصيدة له طويلة مطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وازعجتهم نوى فى صرفها غير

مدح فيها عبد الملك بن مروان و بنى امية وهجا قيسا . وهى من أجود شعره ولد بالجزيرة سنة ٢٠ هـ ٦٤٠ م وتوفى سنة ٩٢ هـ ٧٤٠ م

أرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَميضَ جَمْرٍ ... فَيُوشكُ أن يكونَ لهُ اضْطِرَامُ

فانَّ النّارَ بالعُودَيْنِ تُذكِي ... وانَّ الحربَ أوَّلُها كَلامُ

فقُلتُ منَ التَّعَجُّبِ: ليتَ شِعْرِي ... أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أمْ نِيامُ

فَانْ كَانُوا لحِينِهِمُ نِياماً ... فقُلْ قُومُوا فقَدْ حَانَ القِيامُ

وقال بعض المولدين :

إذا نِلتُ العَطِيةَ بَعْدَ مَطلٍ ... فلا كانَت، وإنْ كانَتْ جَزِيلهْ

وَسُقْياً لِلعَطِيةِ ثُمَّ سُقْياً ... إذا سَهُلَتْ، وإنْ كانتْ قَليله

وللشُّعَراءِ ألسِنةٌ حِدَادٌ ... عَلى العَوْرَاتِ مُوفِيَةٌ دَليلهْ

ومنْ عقلِ الكَرِيمِ إذا اتَّقاهُمْ ... وداراهُم مُداراةً جَمِيلهْ

إذا وَضَعُوا مكاذِبَهُمْ عَليهِ ... وإنْ كَذَبُوا فَليْسَ لهنَّ حِيله

وقالوا : مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها . ومما قالوا فى صفة اللسان قول الاسدى، أنشدنيها ابنُ الاعرابى:

وأصْبَحْتُ أعْدَدْتُ للنّائِبَاتِ ... عِرْضاً بَرِيئاً وَعَضْباً صَقيلا

ووقعَ لِسانٍ كحَدِّ السِّنانِ ... وَرُمْحاً طويلَ القَناةِ عَسُولا

وقال الاعشى :

أدَافِعُ عَنْ أعْرَاضِكم وَأُعِيرُكُم ... لِساناً كمِقْرَاضِ الخفاجِيِّ مِلحباً

الملحب : القاطع .

وقال ابنُ هَرمة :

قُلْ للذِي ظلَّ ذا الوَتِينِ يا كُلْمِي ... لقدْ خَلَوْتَ بلحْمٍ عَارِمِ البَشَمِ

إيَّاكَ لاَ أُلْزِمَنْ لَحْيَيْكَ مِنْ لُجُمٍ ... نِكْلاً يُنَكِّلُ قَرَّاصاً مِنَ اللجُمِ

إِنِّى امْرُؤٌ لاَ أُصُوغُ الْحَلْىَ أَعْمَلُهُ كَفَاىَ لَكِنْ لِسَانِى صَائِغُ الْكَلِمِ

وقال الراجز :

إِنِّى بَغَيْتُ الشِّعْرَ وابْتَغَانِى حَتَّى وَجَدْتُ الشِّعْرَ فِي مَكَانِي

فِى عَيْبَةٍ مِفْتَاحُهَا لِسَانِي

وأنشد :

إِنِّى وإِنْ كَانَ إِزَارِى خَلَقَا وَبُرْدَتَاىَ سَمَلاَ قَد أُخْلِقَا

قَدْ جَعَلَ اللهُ لِسَانِى مُطْلَقَاً

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عثمان: والعتّابى (١) حين زعم : أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصدَه ومعناه بالكلام الملحون ، والمعدول عن جهته ، والمصروف من حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان ، بعد أن نكون قد فهمنا عنه معنى كلام النبطى الذى قيل له : لم اشتريت هذه الاتان ؟ قال : أركبها وتَلِدُلى ، وقد علمنا أن معناه كان صحيحا . وقد فهمنا قول الشيخ الفارسي

---

(١) العتابى: هو كلثوم بن عمرو التغلبي شاعر مطبوع ، وكاتب بليغ ، وخطيب مفوه . كان من شعراء الدولة العباسية ومن متقدميهم ، وكان منقطعا الى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به فبلغ عنده كل مبلغ ، وعظمت منه فوائده . قيل أنه جاء وهو حدث الى بشار فانشده :

أتصدف عن أمامة أم تقيم وعهدك بالصبا عهد قديم

أقول لمستطار القلب عفى على عزماته السير العديم

أما يكفيك ان دموع عينى شآبيب يفيض بها الهموم

اشيم فلا ارد الطرف الا على ارجائه ماء سجوم

فمد بشار يده اليه ثم قال له : انت بصير؟ قال : نعم. قال : عجباً لبصير ان يقول هذا الشعر ؟

حين قال لاهل مجلسه : ما من شر من دين . و إنه قال حين قيل له : ولم ذاك يا أبا فلان ؟ قال : من جرى يتعلقون . وما نشك أنه قد ذهب مذهبا . وانه كما قال معنى قول أبى الجهير الخرسانى النخاس حين قال له الحجاج : أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ قال : شريكاتنا فى هوازها وشريكاتنا فى مدائنها وكما نجىء تكون . قال الحجاج : ما تقول ويلك ؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول شركاؤنا بالاهواز والمدائن يبعثون الينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها . وقلت لخادم لى : فى أى صناعة أسلم هذا الغلام ؟ قال : أصحاب سند نعال . يريد : فى أصحاب النعال السندية وكذلك قول الكاتب المغلاق للكاتب الذى دونه : اكتب لى قل حطين وريحنى منه .

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بياناً . وكيف يكون ذلك كله بياناً ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ؟ ونحن لم نفهم عنه الا للنقص الذى فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معانى هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومى والصقلبى . وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم من حمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم بضغاء السنّور كثيراً من ارادته . وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع ، وانما عنى العتّابى إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء . وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا :

« مُكْرَهُ أخاكَ لا بَطَلْ » و « إذا عَزَّ أخاكَ فَهُنْ »

ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت الى أبو زيد . ورأيت أبى عمرو . ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه بهرجوه (١) ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تُفسد اللغة وتنقص البيان . لأن تلك اللغة انما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التى اجتمعت لها فى تلك الجزيرة وفى تلك الجيرة . ولفقد الخطأ من جميع الامم . ولقد كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد . على أنه قد كان وضع منزله فى آخر موضع الفصاحة وأول موضع العُجمة . وكان لا ينفك من رواة ومذاكرين .

(١) بهرجوه : زيفوه

وزعم أصحابنا البصريون عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال . لم أر قرويّين أفصح من الحسن(١) والحجاج . وكان مازعموا لايبرئهما من اللحن . وزعم أبو العاصي أنه لم ير قروياً قط لايلحن في حديثه وفيما يجرى بينه وبين الناس إلا ماتفقده من أبي زيد النحوى (٢) ومن أبي سعيد المعلم .

وقد روى أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لاعرابي . كيف أهلك ؟ قالها بكسر اللام ، قال : صلباً . لأنه أجابه على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله . وسمعت ابن بشير ،وقال له المفضل العنبري : اني عثرت البارحة بكتاب وقد التقطته وهوعندى، وقد ذكروا أن فيه شعراً ،فان أردته وهبته لك ـ قال ابن بشير : اريده ان كان مقيداً . قال : والله ماأدرى أكان مقيداً أو مغلولا ! ولوعرف التقييد

---

(١) الحسن : هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصرى . كان بارع الفصاحة ، بليغ المواعظ ، كثير العلم . وكان أبوه يسمى يسار من أهل ميسان مولى لزيد بن ثابت الانصارى وكانت أمه خيرة مملوكة لأم سلمة زوج النبي ﷺ وكان ربما بكى فأعطته ثديها . ومن كلامه ، وقد تلا يوماً « إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال » إن قوماً غنوا في المطارف العتاق، والعمائم الرقاق ، يطلبون الامارات ، ويضيعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية ، حتى اذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة، وظلموا من تحتهم من أهل الذمة، أهزلوا دينهم ، وأسمنوا براذينهم ، ووسعوا دورهم ، وضيقوا قبورهم ، ألم ترهم قد جددوا الثياب وأخلقوا الدين ؟ تبكى يمين أحدهم على شماله ، ويأكل من غير ماله ، طعامه غصب ،وخدمته سخرة ، يدعو بحلو بعد حامض ، وبحار بعد بارد ،وبرطب بعد يابس : حتى اذا أخذته الكظة تجشأ من البشم ثم قال :ياجاريه ،هاتى حاطوماً ، يعنى هاضوماً يهضم الطعام ، يا أحمق ، لا والله لن تهضم إلا دينك ، أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله به ؟ . وله مواعظ كثيرة آية في البلاغة والاعتبار . وهو من سادات التابعين وأعيانهم ولد بالبصرة سنة ٢١ هـ ٦٤١ م وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ ٧٢٨ م (٢) أبو زيد : هو سعيد بن أوس الانصارى كان أماما في النحو والأدب واللغة والنوادر والغريب ، وكان حجة ثقة . أخذ عن أبي العباس المفضل بن محمد الضبي . قال أبو عثمان المازنى : رأيت الاصمعى جاء الى حلقة أبي زيد فقبل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت سيدنا ورئيسنا منذ خمسين سنة . وله تصانيف كثيرة ولد سنة ١٢٢ هـ ٧٣٩ م وتوفى سنة ٢١٥ هـ ٨٣٠ م

لم يلتفت الى روايته . وحكى الكسائى (١) أنه قال لغلام بالبادية : من خلقـْك ؟ وجزم القاف ـ فلم يدر ماقال ولم يجبه . فرد عليه السؤال . فقال الغلام : لعلك تريد من خَلَقَكَ ؟ وكان بعض الاعراب اذا سمع رجلا يقول : نعم . فى الجواب . قال: نعم وشاء . لأن لغته « نِعم » وقيل لعمر بن لجاء : قل « إنّا مِنَ المُجْرِمُونَ منتقمين » ؟ قال « إنا من المجرمين منتقمون » وأنشد الكسائى كلاماً دار بينه و بين بعض فتيان البادية فقال :

عَجَباً مَا عَجَبٌ أعْجَبَنِي ... مِنْ غُلاَمٍ حكَمِيٍّ أُصُلاَ

قُلْتُ هَلْ أحْسَسْتَ رَكباً نَزَلوا ... حِضناً مادُونَهُ ؟ قال : هَلاَ

قلتُ بَيِّنْ ماهلاء هلْ تَزَلوا ؟ ... قال : حُوبا . ثُمَّ ولَّى عَجِلا

لسْتُ أدْرى عِنْدَهَا ما قال لِى ... أنَعَمْ ماقال لى ؟ أمْ قال : لاَ

تِلكَ مِنْهُ لُغَةٌ تُعْجِبُنى ... زادَتِ الْقَلبَ خَبالا خبلا

قال أبو الحسن: قال مولى زياد لزياد : أهدوا لنا حِمار وحش. قال : أى شىء تقول ويلك ؟ قال : أهدوا لنا أيْراً ، يريد أهدوا لنـا عيرا . قال زياد : ويلك الاول خير . وقال الشاعر يذكر جارية له لـكناء :

أوَّلُ مَا أسْمَعُ مِنْها فِي السَّحَرْ ... تَذْكِيرَهَا الأُنْثَى وَتَأْنِيثَ الذَّكَرْ

والسَّوْأَةُ السَّوْآءُ فِي ذِكْرِ الْقَمَر

فزياد قد فهم عن مولاه، وصاحب الجـارية قد فهم عن جاريته . ولـكنهما لم يفهما عنهما من إفهامها لهما . ولـكنهما لما طال مقامهما فى الموضع الذى يكثر فيه سماعهما لهذا الضرب صارا يفهمان هذا الضرب من الـكلام

---

(١) الـكسائى : هو على بن حمزة الشهير بالـكسائى إمام الـكوفيين فى النحو واللغة وأحد القراء السبعة المشهورين . قال ابن الاعرابى : كان الـكسائى أعلم الناس بالفقه ضابطاً عالماً بالعربية قارئاً صدوقاً الا إنه كان يديم شرب النبيذ وغيره . مات بالرى سنة ١٩٢ هـ ٨٠٧ م

﴿ ذكر ماقالوا فى مديح اللسان بالشعر الموزون واللفظ المنثور ﴾

(ماجاء في الأثر وصح به الخبر)

قال الشاعر :

أَزَى النَّاسَ فِى الأَخْلاَقِ أَهْلَ تَخَلُّقٍ ... وأَخْبَارَهُمْ شَتَّى فَعُرْفٌ وَمُنكَرُ

قَرِيباً تَدَانيهِمْ إِذَا مَا رَأَيْتَهُم ... ومُخْتَلِفاً مَا بَيْنَهُمْ حِينَ تَخْبُرُ

فَلاَ تَحْمَدَنَّ الدَّهْرَ ظاهِرَ صَفْحَةٍ ... مِنَ المَرْءِ مالَمْ تَبْلُ ما لَيْسَ يَظْهَرُ

فما المَرْءُ إِلا الأَصْغَرَانِ لِسَانُهُ ... ومَعْقُولُهُ والجِسْمُ خَلْقٌ مُصَوَّرُ

وما الزَّيْنُ في ثَوْبٍ تَرَاهُ وَإِنما ... يَزِينُ الْفَتَى مَخْبُورُهُ حِينَ يُخْبَرُ

فانْ طُرَّةٌ رَاقَتْكَ مِنْهُمْ فَرُبَّما ... أَمَرَّ مَذاقُ العودِ والعُودُ أَخْضَرُ

وقال سويد بنُ أبى كاهل (١) فى ذلك :

وَدَعَتْنِي بِرُقَاهَا أَنَّهَا ... تُنْزِلُ الأَعْصَمَ مِنْ رَأْسِ الْيَفَعْ ٢

تُسْمِعُ الحُدَّاثَ قَولاً حَسَناً ... لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يُسْتَطَعْ

ولِساناً صَيْرَفِيّاً صارِماً ... كَحُسَامِ السَّيْفِ مَا مَسَّ قَطَعْ

وقال جرير : (٣)

---

(١) سويد بن أبى كاهل اليشكرى : شاعر متقدم من مخضرمى الشعراء فى الجاهلية والاسلام . وهذه الابيات من قصيدته البارعة التى قال فيها الأصمعى : كانت العرب تفضلها وتعدها من حكمها ، وكانت تسميها فى الجاهلية « اليتيمة » وهى مثبتة كاملة بالمفضليات ومشروحة بقلمنا ، فمن شاءها فليرجع اليها

(٢) الاعصم : صفة من صفات الظباء والوعول . اليفع : المكان المرتفع

(٣) جرير : هو جرير بن عطية بن الخطفى اليربوعى يكنى أبا حزرة ، وهو والفرزدق والاخطل المقدمون على شعراء الاسلام ، وكان جرير اكثرهم فنون شعر ، وأسهلهم ألفاظا ، واقلهم تكلفها ، وأرقهم نسيباً ، وأسيرهم شعراً ، مع عفة ودين .

وليْسَ لِسَيْفِي في العِظامِ بَقِيَّةٌ ولا السَّيفُ أشْوَى وَقْعَةً من لِسانِيا

وقال الآخر :

وَجُرْحُ السَّيفِ تَدمُلُهُ فَيبرَى وَيَبقي الدَّهْرَ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

وقال الآخر :

أبا ضبيعةَ لاَ تعْجَلْ بِسَيِّئةٍ الى ابْنِ عَمِّكَ واذكُرْهُ بِاحسان
إمَّا تَرَانى وَأنوَابى مقاربة ليست بخز ولا من نسج كَتَّانِ
فانَّ فى المَجْدِ هِمَّاتي وفى لُغَتى عُلْوِيَّةٌ وَلِسانى غَيرُ لَحَّانِ

وفيما مدحوا به الاعرابيّ اذا كان أديباً انشدنى ابنُ أبى خُزَيمة واسمه أسود:

ألا زَعَمَتْ عَفْرَاء بالشَّامِ أنَّنِي غُلامُ جَوَارٍ لا غُلامُ حرُوبِ
وإنّى لاَهدَى بالأَوَانِسِ كالدُّمَى وإنّى بأطرَافِ القَنَا لَلَعُوبُ
واني على ما كانَ من عُنْجُهِيَّتِي وَلَوْثَةِ أعْرَابِيَّتِى لاَدِيبُ

وقال ابنُ هرْمَةَ :

للهِ دَرُّكَ منْ فَتًى فَجعَت بهِ يَوْمَ الْبَقيعِ حَوَادِثُ الأيَّامِ
هَشٌّ إذا نَزَلَ الوفود ببابهِ سَهْلُ الحِجَابِ مؤدَّبُ الْخُدَّامِ
فاذا رَأيتَ شَقِيقَه وصَدِيقَه لَمْ تَدْرِ أيُّهُما أخُو الأرْحامِ

وقال كَعْبُ بنُ سَعْدِ الغَنَوِى :

حَبِيبٌ الى الزُّوَّار غِشْيَانُ بيتهِ جَمِيلُ المُحيَّا شَبَّ وَهْوَ أدِيب

قال الاصمعى: كان ينهش جريراً ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحدا واحدا، ومنهم من كان ينفخه فيرمى به وثبت له الفرزدق والاخطل.
كانت ولادة جرير سنة ٢٩ هـ ٦٤٩ م. وتوفى بعد الفرزدق بسنة. وكانت وفاته باليمامة سنة ١١١ هـ ٧٢٩ م

اذا مَا تَرَاآهُ الرِّجال تَحفّظوا فَلَمْ تَنْطِقِ العَوْرَاء وَهْوَ قَرِيب

وقال الحارثى :

وَتَعْلَم أَنّى ماجِدٌ وَتَرُوعُها بَقِيّةُ أَعْرَابِيّةٍ فى مُهَاجِر

وقال الآخر :

وانَّ امرأً فى النّاسِ يُعطِى ظُلامةً وَيُمْنَعُ نَصفَ الْحَقِّ منه لَرَاضِع

أَ ألموتَ يَخشَى أَنْ كَلَ اللهُ أُمَّهُ أَمِ الْعَيْشَ يَرْجو نَفعَه وَهوَ ضائِع

ويطْعَم مالَمْ يَنْدَفِعْ فِي مَرِيئِهِ وَيَمْسَحُ أَعْلَى بَطْنِهِ وهوَ جائِعُ

وإنّ الْعُقولَ فاعْلَمَنَّ أَسِنَّةٌ حِدادُ النواحِي أَرْهَفَتْها المواقِعُ

ويقول : كأن لسانه لسان ثور. وحدثنى من سمع أعرابياً مدح رجلا برقة اللسان فقال : كان والله لسانه أرق من ورقة، وألين من سرقة. وقال النبى ﷺ لحسان بن ثابت : ما بقى من لسانك ؟ فاخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته ثم قال : والله ما يسرنى به مقول من معد ، والله لو وضعته على صخر لفلقه، أو على شعر لحلقه . قال: وسمعت أعرابياً يصف لسان رجل فقال : كان يشول بلسانه شولان البروق، و يتخلل به تخلل الحية . وأظن هذا الاعرابى أبا وجيه العكلى

يشول : يرفع . البروق : الناقة اذا طابت الفحل فانها حينئذ ترفع ذنبها . وانما سمى شوّال شوّالا لان النوق شالت باذنابها فيه . فان قال قائل : قد يتفق أن يكون شوّال فى وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه فلم بقى هذا الاسم عليه وقد ينتقل ماله لزم عنه ؟ قيل له : إنما جعل هذا الاسم له سمة حيث اتفق أن شالت النوق باذنابها فيه فبقى عليه كالسمة ، وكذلك رمضان إنما سمى لرمض الماء فيه ، وان كان قد يتفق هذا الاسم فى وقت البرد والحر

ووصف أعرابى رجلا فقال : أتيناه فاخرج لسانه كانه مخراق لاعب . وقال العباس بن عبد المطلب للنبى ﷺ : يارسول الله ، فيم الجمال ؟ قال: فى اللسان . وكان مجاشع بن درام خطيبا سليطا ، وكان نهشل بكيئاً منزوراً ، فلما خرجا من عند بعض الملوك عذله مجاشع فى تركه الكلام. فقال له نهشل: انى والله لأحسن تكذابك ولا تأثامك ، تشول بلسانك شولان البروق .

وقالوا : على جميع الخلق مرتبة الملائكة ، ثم الانس، ثم الجن . وأنما صار لهؤلاء المزية على جميع الخلق بالعقل ، وبالاستطاعة على التصرف ، وبالمنطق .

وقال خالد بن صفوان : ما الانسان لولا اللسان الا صورة ممثلة ، أو بهيمة مهملة.

وقال رجل لخالد بن صفوان : مالى اذا رأيتكم تتذاكرون الاخبار ، وتتدارسون الآثار ، وتتناشدون الاشعار ، وقع علىَّ النوم؟ قال : لانك حمار فى مسلاخ انسان .

وقال صاحب المنطق : حد الانسان الحى الناطق المبين . وقال الاعور الشنى (١)

وكائنْ ترَى مِنْ صامتٍ لكَ مُعْجِبٍ زِيادَتُهُ أوْ نَقْصُهُ فى التَّكلمِ
لِسانُ الفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤادُهُ فَلَمْ تَبْقَ الا صُورَةُ اللحْمِ والدَّمِ

ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه للذى رأى من دمامته وقصره وقلته فقال النعمان : تسمع بالمُعَيْدِيّ لا أن تراه . فقال : أبيت اللعن ، ان الرجال لا تكال بالقفزان، ولا توزن بميزان ، وليست بمسوك يستقى بها ، وانما المرء بأصغريه بقلبه ولسانه ، ان صال صال بجنان ، وان قال قال ببيان .

واليمانية تجعل هذا للصقعب النهدى ، فان كان ذلك كذلك فقد أقروا أن نهداً من معد .

وكان يقال : عقل المرء مدفون بلسانه

﴿ باب فى ذكر اللسان ﴾

أبو الحسن قال : قال الحسن : لسان العاقل من وراء قلبه ، فاذا أراد الكلام تفكر ، فان كان له قال ، وان كان عليه سكت . وقلب الجاهل من وراء لسانه ،فان هم بالكلام تكلم به له أو عليه

قال ابو عبيدة ، قال أبو الوجيه : حدثنى الفرزدق (٢) قال : كنا فى ضيافه

---

(١) هذان البيتان يرويان لزهير بن أبى سلمى وهما ضمن معلقته . ويظهر أن هذا من خلط الرواة وعبثهم

(٢) الفرزدق : هو همام بن غالب بن صعصعة التميمى، ويكنى أبا فراس ، وهو وجرير والاخطل الذين ذهبوا بالتقدم على شعراء الاسلام ، وكان شاعرا فخم العبارة

معاوية بن أبي سفيان ومعنا كعب بن جعيل التغلبي فقال له يزيد : ان ابن حسان ـ يريد عبد الرحمن ـ قد فضحنا فاهج الانصار . قال: أرادى أنت الى الاشراك بعد الاسلام ؟ لا أهجو قوما نصروا رسول الله ﷺ ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى كأن لسانه لسان ثور : يعنى الاخطل

وقال سعد بن أبي وقاص لعمر ابنه ـ حين نطق مع القوم فبذهم وقد كانوا كلموه فى الرضا عنه :ـ هذا الذى أغضبنى عليه أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنهم كما تلحس الارض البقرة بلسانها » .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : يا عمرو ان أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضم اليك رجل طويل اللسان قصير الرأى ، فأجد الحز وطبق المفصل ، ولا تلقه برأيك كله

والعجب من قول ابن الزبير الاعرآب : سلاحكم رث ، وحديثكم غث ، وكيف يكون هذا وقد ذكروا أنه أحسن الناس حديثا وأن أبا نضرة وعبد الله بن أبى بكر انما كانا يحكيانه ، فلا ادرى الا ان يكون حسن حديثه هو الذى القى الحسد بينه وبين كل حسن الحديث.

وقد ذكروا ان خالد بن صفوان تكلم فى بعض الامر فأجابه رجل من أهل المدينة بكلام لم يظن خالد أن الكلام كان عنده فلما طال بهما المجلس كان خالد عرض له (١) ببعض الامر فقال المدنى : يا أبا صفوان ، ما من ذنب الا اتفاق الصناعتين . ذكر ذلك الاصمعى . قال فضال الازرق ، قال رجل من بنى منقر : تكلم خالد بن صفوان فى صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، واذا اعرابى فى بت (٢) ما فى رجليه حذاء ، فاجابه بكلام وددت والله أنى كنت متّ وأن ذلك

شديد أسر الكلام ، جيد الاسلوب . وكانت بينه وبين جرير والاخطل مناقضات ومنافرات ومنافسات واهاج . مات سنة ١١٠ هـ ٧٢٨ م ورثاه جرير بأبيات منها

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تعلت

هو الوافد الميمون والراتق الثآى اذا النعل يوما بالعشيرة زلت

(١) فى الأصل: أعرض ، وليست بذاك ، والصواب: عرّض كما اثبتناه (٢) فى الاصل : بث ، ولا معنى للبث الذى هو الحزن الشديد ههنا ، والصحيح انها : بت ، وهو طيلسان من خز أو نحوه أو هو قباء غليظ

لم يكن ، فلما رأى خالد ما نزل بى قال : كيف نجاريهم وانما نحكيهم ، وكيف نسابقهم وانما نجرى على ما سبق الينا من أعراقهم ؟ (١) وليفرخ روعك(٢) فانه من مقاعس ، ومقاعس لك . فقلت : يا أبا صفوان والله ما ألومك على الاولى ، ولا أدع حمدك على الاخرى

قال أبو اليقظان: قال عمر بن عبد العزيز : ما كلمنى رجل من بنى أسد الا تمنيت أن يمد له فى حجته حتى يكثر كلامه فأسمعه

وقال يونس : ليس فى بنى أسد الا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل الا شاعر ، أو رام ، أو شديد العدو

التَّرْجَمَانُ بنُ هُزَيْمِ بن عدى بن أبى طحمة قال : دعى رقبة بن مصقلة ـ أو كرب بن رقبة ـ الى مجلس ليتكلم فيه فرأى مكان أعرابى في شملة فانكر موضعه فسال الذى عن يمينه عنه فخبره أنه الذى أعدوه لجوابه، فنهض مسرعا لا يلوى على شيء كراهة أن يجمع بين الديباجتين فيتضع عند الجميع .

وقال خلاد بن يزيد : لم يكن أحد بعد أبى نضرة أحسن حديثا من مسلم بن قتيبة قال: وكان يزيد بن عمر بن هبيرة يقول : احذفوا الحديث كما يحذفه مسلم بن قتيبة

ويزعمون أنه لم يروا محدثاً قط صاحب آثار كان أجود حذفا وأحسن اختصارا للحديث من سفيان بن عيينة ، سالوه مرة عن قول طاوس في زكاة الجراد فقال ابنه عنه ، زكاته أخذه

(و باب آخر) وكانوا يمدحون شدة العارضة ، وقوة المسنة ، وظهور الحجة وثبات الجنان ، وكثرة الريق ، والعلو عن الخصم . ويهجون بخلاف ذلك قال الشاعر :

طَباقاءُ لم يَشْهَدْ خُصوماً ولم يَعِشْ حَمِيداً ولم يَشهدْ حلالا ولا عِطْرا

قال ابو زُبيد الطائى (٣)

وخَطيبٍ إذا تَمُوت الأُوْ جه يَوْماً فى مأقط مَشْهود

طباقاء : يقال للبعير إذا لم يحسن الضراب جمل عياياه ، وجمل طباقاء ، وهو هنا للرجل الذى لا يتجه للحجة . الحلال : الجماعات ، و يقال : حى حلال، اذا كانوا

(١) أعراقهم : اصولهم (٢) ليفرخ روعك : ليهدأ بالك ولتطمئن نفسك

(٣) فى الاصل : ابو زيد وليس كذلك ،والصحيح انه ابو زبيد الطائى . وابو

متجاورين مقيمين . والعطر ها هنا : الحرس . الماقط : الموضع الضيق ، والمأقط : الموضع الذى يقتتل فيه

وقال نافعُ بن خليفةَ الغنوىُّ :

وخَصْمٍ لَدَى بابِ الأميرِ كأنَّهمْ قُرومٌ فَشَافِيها الزَّوائِرِ والهَـدْرِ

القروم : الجمال المصاعب . الزوائر : الذين يزأرون . الهدر : صوته عند هيجه ، ويقال له : الهديرُ

دَلَفْتُ لَهمْ دونَ المُنَى بِمِلِمَّةٍ من الدَّرِّ فى أعْقَابِ دُرِّتِها شَذْرِ

دَلفت : دنوت

إذَا القومُ قالوا : أدْنِ منها وجَدْتَها مطَـبَّقَةً يَهْماءَ ليسَ لها خَصْرِ

قوله : أدن منها ، أى قللها واختصرها . وجدتها مطبقة : أى طبقتهم بالحجة . اليهماء : الارض التى لا يهتدى فيها الطريق ، ويهماء ها هنا يعنى التى لا يهتدى اليها ، ويضل الخصوم عندها . والأيهم من الرجال : الحائر الذى لا يهتدى لشيء ، وأرض يَهماءُ : اذا لم تكن فيها علامة

وقال الأسلعُ بن قطاف الطهوى :

فـداءٌ لِقومي كلُّ مَعْشَرِ جارِمٍ طَرِيدٍ ومَخذولٍ بِمـا جرَّ مُسلَمُ

هُم أفْحَمُوا الخَصْمَ الذى يَسْتَفِيدني وَهُمْ قَصَمُوا حِجْلِي وهم حَقَنُوا دَمِى (١)

بأيْدٍ يُفَرِّجْنَ المَضِيقَ وألْسُنٍ سِلاَطٍ وَجَمعٍ ذِي زُهاء عَرَمْرَمِ

اذَا شِئْتَ لَمْ تَعدَم لدَى البابِ منْهُم جَميلَ المحيَّا وَاضِحاً غَـيرَ تَوأَمِ

التوأمان : الاخوان المولودان فى بطن .

وقال التَّميمى فى ذلك :

زبيد الطائى هو حرملة بن المنذر شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام ، ومات نصرانيا وكان لسنا فصيحا وصافا بليغا وهو الذى وصف الاسد فى حضرة عثمان عمر عمراً طويلا ومات فى عهد معاوية (١) حجلى : قيدى

أمَا رأيْتَ الأَلْسُنَ السِّلاَطا وَالجاهَ وَالاقْدَامَ والنَّشاطا ؟

إنَّ النَّدَى حيثُ تَرَى الضِّغَاطا

ذهب فى البيت الأخير الى قول الشاعر :

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الحَبُّ وتَغْشَى مَنَازِلُ الكُرَمَاءِ

والى قول الآخر :

يَرْفَضُّ عَنْ بَيْتِ الفَقِيرِ ضُيُوفُهُ وتَرَى الغِنَى يَهْدِى لَكَ الزُّوَّارا

وأنشد فى المعنى الأول :

وخَطِيبِ قَوْمٍ قَدَّمُوهُ أَمَامَهُمْ ثِقَةً بِهِ مُتَخَمِّطٍ تَيَّاحِ

جَاوَبْتُ خُطْبَتَهُ فَظَلَّ كَأَنَّهُ لَمَّا خَطَبْتُ مُمَلَّحٌ بِمِلاَحِ

المتخمط : المتكبر مع غضب . التَّيَّاحُ والمُتيح : الذى يَعرض فى كل شيء ويدخل فيما لا يعنيه . قوله مملح بملاح : أى منقبض كأنه ملح من الملح .

وأنشد أيضاً :

أَرِقْتُ لِضَوْءِ بَرْقٍ فى نَشَاصٍ تَلأْلأَ فى مُمَلاَّةٍ غِصَاصِ

النشاص : السحاب الابيض المرتفع بعضه فوق بعض ، وليس بمنبسط . والتلألؤ : ظهور البرق فى سرعة . مُمَلاَّة بالماء . غصاص : قد غصت بالماء

لَوَاقِحُ دُلَّحٌ بالمَاءِ سُحْمٌ تَمُجُّ الغَيْثَ مِنْ خَلَلِ الخَصَاصِ

اللَّواقحُ : التى قد لقحت من الريح . والدُّلَّحُ : الدانية الظاهر المثقلة بالماء . سُحم : سود . الخصاص هاهنا خَلَلُ السحاب :

سَلِ الخُطَبَاءَ هَلْ سَبَحُوا كَسَبْحِي بُحُورَ القَوْلِ أو غَاصُوا مَغَاصِي

لِسَانِي بالنَّثِيرِ وبالقَوَافِي وبالأَسْجَاعِ أَمْهَرُ فِي الغِوَاصِ

النثير : الكلام المنثور. القوافى : خواتم أبيات الشعر . الاسجاع : الكلام المزدوج على غير وزن

مِنَ الحوتِ الذى فى لُجِّ بَحْرٍ يُجيدُ الغَوْصَ فى لُجَجِ المَغاصِ
لَعَمْرُكَ إِنَّنِى لَأَعِفُّ نَفْسى وأَسْتُرُ بالتَّكَرُّمِ مِن خصاصِ

وأنشد لرجل من بنى ناشب بن سليمان بن سلامة بن سعد بن مالك بن ثعلبة :

لَنَا قَمَرُ السَّماء وكلُّ نَجْمٍ يُضِيء لَنا إِذَا القَمَرانِ غَارَا
ومَن يَفْخَر بِغيرِ أبي نِزَارٍ فَليسَ بِأَوَّلِ الْخُطَبَاء جَارَا

وأنشد للاقرع :

إِنّى امْرُؤٌ لا أُقِيلُ الخصمَ عَثْرَتَهُ عِندَ الأَمِيرِ اذا ماخَصْمُهُ طَلَعا
يَنِير وَجهِى إِذَا جَدَّ الخِصامُ بِنا ووَجهُ خَصمِى تَرَاه الدَّهرَ مُلْتَفِعَا

وأنشد :

تَرَاه بِنَصْرِي فى الحَفيظة وَاثِقاً وَإِنْ صَدُعَنى العَين مِنه وَحاجِبه
وَإِنْ خَطَرَت أَيْدِى الكُمَاة وجَدَتنى نَصوراً إِذا ما اسْتَيْبَسَ الرِّيقَ عاصِبه

عاصبه : يابسه يعتصم به حتى يتم كلامه . الكُمَاة : جمع كَمِيٍّ ، والكَمِيُّ الرجل المُتكَمِّى ، وهو المتكمى بالسلاح ، يعنى المتكفر به المستتر ، ويقال كَمَّى الرجل شهادته يكميها إذا كتمها وسترها

وقال ابن أحمر ، وذكر الريق والاعتصام به :

هـذا الثَّناء وَأَجدِرْ أَنْ أُصَاحبه وَقَد يُدَوِّمُ رِيقَ الطَّامع الأَمَلُ

وقال الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام وهو يُرقص ابنه عُروة :

أَبيضُ من آلِ أبي عتيقِ مباركٌ من ولَدِ الصِّدِّيقِ

أَلَذُّهُ كما أَلَذُّ رِيقِي

وقالت امرأةٌ من بنى أسد :

أَلا بَكِّرَ النّاعِي بِخَيرِ بَنِي أَسَد ... بِعَمرِو بنِ مَسعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَد

فَمَنْ كَانَ يَعْيَا بِالْجَوَابِ فَإِنَّهُ ... أَبُو مَعْقِلٍ لا حَجْرَ عنْهُ ولا صَدَدْ

أَثارُوا بِصَحْرَاءِ الثُّوَيَّةِ قَبْرَهُ ... وما كنتُ أَخشى أَنْ تَنَاءَى بِهِ البَلَدْ

تَنَاءَى: تبعد . الثَّوية : موضع يقال له صحراء الثوية ، ومن قال الثُّوَية فهى تصغير الثَّوِيَّة

وقال أَوْسُ بن حَجَرٍ فى فُضالة بنِ كَلدة :

أَبادُلَيْجَةَ مَنْ يوصَى بأَرْمَلَةٍ ؟ ... أَمْ مَنْ لأَشْعَثَ ذِي هِدْمَيْنِ طِمْلالِ

أَمْ مَنْ يَكُونُ خَطِيبَ القَوْمِ إِنْ حَفَلُوا ... لَدَى المُلُوكِ أُولِى كَيْدٍ وأَقْوَالِ ؟

هدمين : ثوبين خلقين، يقال: ثوب أهدام، إذا كان خلقاً . والطملال: الفقير

وقال أيضاً فى فُضالة بنِ كَلدة :

أَلِهفَا عَلَى حُسْنِ آلائِهِ ... على الجَابِرِ الحَيِّ والحارِبِ

وَرَقْبَتِهِ حِمَاتِ المُلُوكِ ... بَيْنَ السَّرَادِقِ والحَاجِبِ

وَيَكْفِي المَقَالَةَ أَهْلَ الرِّجا ... لِ غَيرَ مَعِيبٍ ولا عائِبِ

ورقبته: انتظاره إذن الملوك : وجعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانته من الملك

وأنشد أيضاً :

وخَصْمٍ غِضَابٍ يُنْفِضُونَ رُؤُسَهُمْ ... أُولى قَدَمٍ فِي الشَّغْبِ صُهْبٍ سِبَالُها

ضَرَبْتُ لَهُمْ إِبْطَ الشِّمَالِ فَأَصْبَحَتْ ... يَرُدُّ غُوَاةً آخَرِينَ نَكَالُها

إبط الشمال : يعنى الفؤاد ، لأنه يكون فى تلك الناحية

وقال شُتَيْم بن خُوَيلد:

وَقُلْتُ لِسَيِّدِنا : يا حَلِيـمُ إِنَّكَ لَم تَأْسُ أَسْوًا رَفِيقا
أَعَنْتَ عَدِيًّا عَلَى شَأْوِها تُعادِى فَرِيقًا وَتُبْقِي فَرِيقا
زَجَرْتَ بها لَيْلَةً كُلَّها فَجِئْتَ بها مُؤْيِداً خَنْفَقِيقَا

تأسو: تداوى ، أسواً وأسى مصدران . والاسى : الطبيب . ومؤيد : داهية .

خنفقيق : داهية أيضاً . الشأو : الغلوة لركض الفرس

وأنشد لآدم مولى بلعنبر يقولها لابن له :

يا بِأَبِي أَنْتَ وَيَا فَوْقَ بِأَبْ يا بِأَبِي خُصيكَ مِنْ خُصْيٍ وَزُبْ
أَنْتَ الْحَبِيبُ وَكَذا قولُ المحبّ جَنَّبَكَ اللهُ مَعَارِيضَ الوَصَبْ
حَتّى تُفِيدَ وتُدَاوِى ذَا الْجَرَبْ وذا الْجُنُونِ مِنْ سُعَالٍ وكَلَبْ
والْجَدْبَ حَتّى يَسْتَقِيمَ ذُو الْجَدَبْ وتَحْمِلَ الشاعِرَ فِي الْيَوْمِ الْعَصِبْ
على مَباهِيرَ كَثِيرَاتِ النَّعَبْ وإِنْ أَرَادَ جَدِلٌ صَعْبٌ أَرِبْ
خُصومَةً تَنْقُبُ أَوْسَاطَ الرُّكَبْ أَظْلَعْتَهُ مِنْ رُتَبٍ الى رُتَبْ
حَتَّى تَرَى الأَبْصَارُ أَمْثَالَ الشُّهُبْ يَرْمِي بِها أَشْوَسُ مِلْحَاحٌ كَلِبْ
مُجَرَّبُ الشَّدَّاتِ مَيْمُونٌ مِذَبْ

ألوَصب : المرض. والعصب: الشديد، يقال : يوم عَصِب، وعَصيب، وعصبصب اذا كان شديداً . مباهير : متاعيب، قد علاهم البُهر . الارب : يقال رجل أريب وأرب وله أرَبٌ، اذا كان عاقلا أديباً حازماً . أظلعته : يقال ظلع الرجل اذا خمع فى مشيه . الرتبة : واحدة الرتب والرتبات ، وهى الدَّرج ، وهى هاهنا الاشياء المختلفة ، أى تخرجه من شىء الى شىء . الأشوس: الذى ينظر بؤخر عينه . ملحاح:

مُلحّ ،من الالحاح على الشيء . كلِبٌ : أى الذى قد كلَبَ . مذب : أى يذب، عن حريمه وعن نفسه

وقالت ابنةُ وَثيمةَ ترثى أباها وَثيمةَ بنَ عثمان :

الواهِبِ المالَ التِّلادَ دَلنا ويكفينا العظيمهْ
ويكونُ مِدْرَهنا إذا نزلَتْ مُجَلّحةٌ عظيمهْ
واحمرَّ آفاقُ السَّما ءِولم تقعْ في الأرضِ ديمهْ
وتعذَّرَ الآكالُ حتّى كانَ أحمدَها الهشيمهْ
لا ثُلّةٌ ترعَى ولا إبلٌ ولا بقرٌ مسيمهْ
ألفيتهُ مأوَى الأرا مِلِ والمُدَفَّعَةِ اليتيمهْ
والدّافعَ الخصمَ الألـ ـدَّ إذا تفوضحَ في الخصومهْ
بلسانِ لُقْمانِ بنِ عا دوفصلِ خُطْبتِهِ الحكيمهْ
أجمتَهُمْ بعدَ الندا فُعِ والتّجاذُبِ في الحكومهْ

التلاد : القديم من المال ،والطارف : المستفاد . والمدره : لسان القوم المتكلم عنهم. مجلحة : أى داهية مُصممة . احمر آفاق السماء. اشتد البرد وقل المطر وكثر القحط . ديمة : واحدة الدّيم ، وهى الامطار الدائمة مع سكون، تعذر : تمنع. الآكال ، جمع أكل وهو ما يؤكل. الهشيمة : ما يهشم من الشجر ، أى يكسر. الثلة: ما بين الست الى العشر من الغنم . مسيمة : راعية

وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الاكبر والأصغر ، ولقمان بن لقمان فى النباهة والقدر ، وفى العلم والحكم ، وفى اللسان وفى الحلم . وهذان غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن على ما يقول المفسرون . ولارتفاع قدره وعظم شأنه قال النمر بن تولب :

لُقيمُ بنُ لُقمانَ مِنْ أُخْتِهِ فَكانَ بنَ أُخْتٍ لهُ وابْنَما
لَيَالِيَ حُمِّقَ فَاسْتَحْصَنَتْ عليهِ فَغُرَّ بها مُظْلِمَا
فَغُرَّ بها رَجُلٌ مُحْكَمٌ فجاءَتْ بهِ رَجلاً مُحْكَمَا

وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأة لقمان : إنى امرأة مُحْمِقَةٌ ، ولقمان رجل منجب محكم ، وأنا فى ليلة طهرى ، فهبى لى ليلتك . ففعلت . فباتت فى بيت امرأة لقمان وقع عليها ، فأحبلها بلقيم . فلذلك قال النمر بن تواب ماقال . والمرأة اذا ولدت الحُمْقَى فهى مُحْمِقَةٌ ، ولا يُعلم ذلك حتى يُرى ولد زوجها من غيرها أكياساً

وقالت امرأة ذات بنات :

وما أُبالِى أنْ أكُونَ مُحْمِقَهْ اذَا رأيتُ خُصْيَةً مُعَلَّقَهْ

وقال الآخر :

أزْرَى بِسَعْيِكَ أن كُنْتَ امْرَأً حَمِقاً مِنْ نَسْلِ ضَاوِيَةِ الأعْرَاقِ مِحماقِ

ضاوية الاعراق : أى ضعيفة الاعراق نحيفتها ، يقال رجل ضاوٍ وفيه ضاوية اذا كان نحيفاً قليل الجسم ، وجاء فى الحديث « إغتربوا لا تضووا » أى لا يتزوج الرجل القرابةَ القريبة فيجىء ولده ضاوياً ، والفعل منه ضَوِىَ يَضْوَى ضوًى . والاعراق : الأصول . والمحماق : التى عادتها أن تلد الحُمْقَى

ولبعضهم فى البنات قالت احدى القوابل :

أيا سَحابُ طَرِّقِى بِخيرٍ وطَرِّقِى بِخُصْيَةٍ وأيِّرِ
ولا تُرِينا طَرَفَ البُطَيرِ

وقال آخر فى إنجاب الامهات ، وهو يخاطب بنى اخوته :

عَفَارِيتاً عَلَيَّ وأكلِ مَالِي وَحِلماً عَنْ أناسٍ آخرينا
فَهَلاَّ غيرَ عمِّكمُ ظَلَمْتُمْ إذا ما كُنْتُمُ مُتَظَالِمِينا

فَلَوْ كُنْتُمْ لِكَيْسَةٍ أَكَاسَتْ وَكَيْسُ الأُمِّ أَكْيَسُ لِلْبَنِينَا
وَكَانَ لَنَا فَزَارَةُ عَمَّ سُوءٍ وَكُنْتُ لَهُ كَشَرِّ بَنِي الأَخِينَا

ولبغض البنات هجر أبو حمزة الضبي خيمة امرأته ، وكان يقيل ويبيت عند جيران له حين ولدت امرأته بنتاً ، فمر يوماً بخبائها واذا هي ترقصها وتقول :

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لا يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي البَيْتِ الذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ أَنْ لاَ نَلِدَ البَنِينَا تَا للهِ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالأَرْضِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وابنتها

وهـذا الباب يقع فى كتاب الانسان من « كتاب الحيوان » وفى فضل ما بين الذكر والانثى تاماً ، وليس هذا الباب مما يدخل فى باب البيان والتبيين ، ولـكن قد يجرى السبب فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الـكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا اطال لبعض العلم كان ذلك أروح على قلبه وأزيد فى نشاطه إن شاء الله

وقد قال الاول فى تعظيم شأن لقيم بن لقمان :

قُومِي اصْبِحِينِي فَمَا صِيغَ الْفَتَى حَجَراً لَـكِنْ رَهِينَةَ أَحْجَارٍ وَأَرْمَاسِ
قُومِي اصبحيني فانَّ الدَّهرَ ذُو غِيَرٍ أَفْنَى لُقيماً وَأَفْنَى آلَ مرماسِ
اليَومَ خَمرٌ وَيَبدُو فِي غَدٍ خَبَرٌ وَالدَّهرُ من بينِ إنْعَامٍ وَإِيآسِ
فاشرَب عَلَى حَدَثَانِ الدَّهرِ مُرْتَفِقاً لا يَصحَبُ الهَمَّ قَرعُ السِّنِّ بالـكاسِ

اصبحيني : الصبوح : شرب الغداة ، والغبوق : شرب العشي . الرمس : القبر ، يقال : رمست الميت أرمسه وأرمسه اذا دفنته

وقال أبو الطَّمحَانِ القَيْنِيُّ(١) فى ذكر لقمان :

(١) أبو الطمحان القينى . هو حنظلة بن الشرقى القينى القضاعى ، شاعر فارس

إِنَّ الزَّمَانَ وَلاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ فِيهِ تَقَطَّعُ أَلاَّفٍ وَأَقْرَانِ
أَمْسَتْ بَنُو الْقَيْنِ أَفْرَاقًا مُوَزَّعَةً كَأَنَّهُمْ مِن بَقَايَا حَيِّ لُقْمَانِ

وقد ذكرت العرب هذه الامم البائدة والقرون السالفة . ولبعضهم بقايا قليلة وهم أشلاء فى العرب متفرقون مغمورون . مثل جُرهم ، وجاسم ، ووَبار ، وعِملاق ، وأميم ، وطَسم ، وجَديس ، ولقمان ، والهس ماس ، وبنى الناصور ، وقَيْلِ بنِ عنتر ، وذى جدَن ، ويقال فى بنى الناصور ان أصلهم من الروم

فأما ثمود فقد خبر الله عز وجل عنهم فقال : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » وقال : « فهل ترى لهم من باقية ؟ » أنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن ويزعم أن فى قبائل العرب من بقايا ثمود . وكان أبوعبيدة يتأوّل قوله « وثمودَ فما أبقى » أن ذلك إنما وقع على الاكثر وعلى الجمهور الاكبر . وهذا التأويل أخرجه من أبى عبيدة سوء الرأى فى القوم وليس له أن يجىء الى خبر عام مرسل غير مقيد ، وخبر مطلق غير مستثنى منه فيجعله خاصاً كالمستثنى منه . وأى شيء بقى لطاعن أو متأوّل بعد قوله « فهل ترى لهم من باقية ؟ » فكيف يقول ذلك إذا كنا نحن قد نرى منهم فى كل حى باقية ؟ معاذ الله من ذلك . ورووا أن الحجاج قال يوماً على المنبر : يزعمون أنا من بقايا ثمود ، وقد قال الله تبارك وتعالى « وثمود فما أبقى »

فأما الامم البائدة من العجم مثل كنعان ويونان وأشباه ذلك فكثير ، ولكن العجم ليست لها عناية بحفظ شأن الاموات ولا الاحياء . . !

وقال المُسَيَّبُ بنُ علَسٍ(١) في ذِكر لقمان :

خارب صعلوك ، أدرك الجاهلية والاسلام فكان خبيثاً فيهما . وهو القائل :

إذا قيل أى الناس خير قبيلة وأصبر يوماً لا توارى كواكبه
فان بنى لأم بن عمرو أرومة علت فوق صعب لا تنال مراقبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
لهم مجلس لا يحصرون عن الندى اذا مطلب المعروف أجدب راكبه

(١) قوله : وقال المسيب بن علس . رأيت هذه الأبيات منسوبة الى الاعشى

وَإِلَيْكَ أَعْمَلْتُ المَطِيَّةَ مِنْ سَهْلِ العِرَاقِ وأَنْتَ بالْقَفْرِ
أَنْتَ الرَّئِيسُ إِذَا هُمُ نَزَلُوا وتَوَجَّهُوا كالأُسْدِ والنَّمْرِ
لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ المُنَوِّرَ لَيْلَةَ القَدْرِ
ولأَنْتَ أَجْوَدُ بالعَطَاءِ منَ ا رَيَّانِ لمَّا جاد بالقَطرِ
ولأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أُسَامَةَ اذْ نَقَعَ الصُّرَاخُ ولَجَّ في الذُّعْرِ (١)
ولأَنْتَ أَبْيَنُ حِينَ تَنْطِقُ مِنْ لُقْمَانَ لمَّا عَيَّ بالأمرِ

وقال لَبِيدُ بنُ رَبيعة الجعفري :

وأَخْلُفُ قُسًّا لَيْتَنِي ولَوَ انَّنِي وأَعِي عَلَى لُقْمَانَ حُكْمَ التَّدَبُّرِ
فإِنْ تَسْأَلِينَا: كَيْفَ نَحْنُ فانَّنَا عَصَافِيرُ مِنْ هذَا الأَنَامِ المُسَحَّرِ

السَّحَرُ : الرئة ، والمسحر : المُعلل بالطعام والشراب ، والمُسحر : المخدوع كما قال امرؤ القيس :

أَرَانا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعَامِ وبالشَّرَابِ

أى نُعلل، فكأنا نخدع ونُسحر بالطعام و بالشراب

وقال الفرزدق :

لَئِنْ حَوْمَتِي صَانَتْ مَعَدٌّ حِيَاضَهَا لَقَدْ كَانَ أُقمانُ بنُ عادٍ يهابُها

وقال آخر :

ومثبته فى ديوانه (١) هذا البيت مركب من بيتين أولهما للمسيب بن علس حيث يقول.

ولأنت أشجع من أسامة إذ يقع الصراخ ولج فى الذعر

وثانيهما لزهير بن أبى سُلمى حيث يقول :

ولنعم حشو الدرع أنت إذا دعيت : نزال ، ولج فى الذعر

وليس من الصواب نسبة هذا البيت أو بعضه للاعشى ... وأسامة : الاسد .

نقع الصراخ : ارتفع

إذَا مَامَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ فَسَرَّكَ أن يَعيش فَجِيءْ بِزَادِ
بخبْزٍ أوْ بِلَحْمٍ أوْ بِتمْرٍ أوِ الشّيءِ الملَفّفِ في البِجَادِ
تَرَاهُ يُطَوّفُ الآفاقَ حِرْصاً لِيأْكلَ رَأسَ لُقمان بنِ عادِ

وقال أفنون التغلبي :

لَوْ أنّنِي كُنْتُ من عادٍ ومن إِرَمٍ رَبيبَ قَيلٍ ولقمانٍ وذى جدَنِ

وقال آخر :

ما لَذّةُ العَيْشِ والفَتى لا مدَّهرٍ ، والدَّهرُ ذُو فُنُونْ
أهْلاكَ طَسْماً وقبلَ طَسْمٍ أهْلاكَ عاداً وذا جُدُونْ
وأهْلَ جَاسِمٍ ومَأرب وَحَيّ لُقمانَ والنقُونْ
والْيُسْرُ لِلعُسْرِ، والتَّغنّى لِلفقرِ ، والحَيُّ لِلمَنُونْ

قال : وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهَذَر والتكلف والاسهاب والاكثار ، لما فى ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة فى العلو والقدر . وكانوا يكرهون الفضول فى البلاغة، لأن ذلك يدعو إلى السلاطة ، والسلاطة تدعو الى البذاء ، وكل مِراء فى الارض فانما هو من نتاج الفضول . ومن حصل كلامه وميزه وحاسب نفسه وخاف الاثم والذم أشفق من الضراوة وسوء العادة ، وخاف ثمرة العُجب وهجنة القبح ، وما فى حب السمعة من الفتنة ، وما فى الرياء من مجانبة الاخلاص

ولقد دعا عُبادةُ بنُ الصامت بالطعام بكلام ظَنّ أنه ترك فيه المحاسبة ، فقال أوْسُ بن شداد : إنه قد ترك فيه المحاسبة ، فاسترجع ثم قال : ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله ﷺ الا مزمومة مخطومة . قال : ورووا عن حماد بن سلمة عن أبى حمزة عن ابرهيم قال : إنما يهلك الناس فى فضول الكلام ، وفضول المال . وقال : دع المعاذر فان اكثرها مفاجر . وانما صارت المعاذر كذلك لأنها داعية الى التخلص بكل شيء . وقال سلام بن مطيع : قال لى أيوب : إياك وحفظ الحديث

خوفاً عليه من العُجب . وقال ابرهيم النخعى : دع الاعتذار فانه يخالط الكذب.

قالوا : ونظر شاب وهو في دار ابن سيرين الى فرش فى داره فقال : مابال تلك الآجرة أرفع من تلك الآجرة الاخرى ؟ فقال ابن سيرين : (١) يا ابن أخى ان فضول النظر يدعو الى فضول القول

وزعم ابرهيم بن السندى قال : أخبرنى من سمع عيسى بن على يقول : فضول النظر من فضول الخواطر ، وفضول النظر يدعو الى فضول القول ، وفضول القول يدعو الى فضول العمل ، ومن تعود فضول الكلام ثم تدارك استصلاح لسانه خرج من استكراه القول ، وإن أبطأ أخرجه إبطاؤه الى أقبح من الفضول

قال أبو عَمْرِو بنِ الْعَلاَء : أنكح ضرار بن عمرو الضبى ابنته معبدَ بنَ زُرارة فلما أخرجها اليه قال لها : يابنية ، أمسكى عليك الفضلين . قالت : وما الفضلان ؟ قال : فضل الغُلمة ، وفضل الكلام

وضرار بن عمرو هو الذى قال : من سرّه بنوه ساءته نفسه . وهو الذى لما قال له المنذر : كيف تخلصت يوم كذا وكذا ، وما الذى نجاك ؟ قال : تأخير الاجل ، واكراهي نفسى على المُقّ الطوال

المَقّاء : المرأة الطويلة ، والمُقّ جماعة النساء الطوال ، والمُقّ أيضاً الخيل الطوال

وكان اخوته قد استشالوه حتى ركب فرسه ورفع عقيرته بعكاظ فقال : ألا إن خير حائل أمٌّ ، ألا فزوجوا الامهات . وذلك أنه صُرع بين القنا فانشل عليه اخوته لأمه حتى أنقذوه

---

(١) ابن سيرين : هو محمد بن سيرين ، كان يكنى أبا بكر ، وكان والده سيرين عبداً لأنس بن مالك فكاتبه على عشرين ألفاً وأداها ، وكانت أمه صفية مولاة أبى بكر الصديق . وكان محمد بزازاً وحبس بدين كان عليه . قال الاصمعى : الحسن (البصرى) سيد سمح ، واذا حدثك الاصم ـ يعنى ابن سيرين ـ بشىء فشد يديك عليه ، وقتادة حاطب ليل . ولد سنة ٣٣ هـ ٦٥٣ م وتوفى سنة ١١٠ هـ ٧٢٨ م